من غراس السعادة

رحلة في عالم القيم للتغيير نحو الأفضل



بدر الحسين

دار الفكر
www.fikr.com
آفاق معرفة متجددة



مِنْ غِراس السعادة

رحلة في عالم القيم للتغيير

نحو الأفضل

بدر الحسين

مِنْ غِراسِ السعادة

رحلة في عالم القيم للتغيير نحو الأفضل







دار الفكر – دمشق
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
دار الفكر المعاصر – بيروت
٠٠٩٦١ ١ ٨٦٠٧٣٩
http:/www.fikr.com - e-mail:fikr@fikr.net

من غراس السعادة

رحلة في عالم القيم للتغيير نحو الأفضل

الأستاذ: بدر الحسين

الرقم الاصطلاحي: 011و2352

الرقم الموضوعي: 814 (المقالة والخاطرة والمقامات)

129 ص، 17 × 25 سم

الطبعة الأولى : 1435هـ= 2014م

مقدمة

مَن منَّا لا ينشدُ السعادةَ؟ مَن منَّا لا يبحثُ عنها في صبحِه ومسائِه، في حلمِه ويقظتِه، في سرِّه وجَهرِه؟ مَن منَّا لا يشتاقُ إليها، ويحدِّثُ نفسَه بها، ويتخيَّلُ مقدَمَها بين الفينة والأخرى؟

شوقُنا إلى السعادة متأصِّلٌ في ثنايا قلوبنا، ويتردَّدُ صداه مع كل نبضةٍ، ويومِض سناهُ مع كل رمشَة جفن.

ما أشبهَ شوقَنا للسَّعادة بشوق الخزامى إلى الندى، وشوقِ الطيور المغرِّدة إلى المدى، وشوق الشَّفَة إلى البسمة، وشوقِ العين إلى الكُحل، وشوق المناجِل إلى السَّنابل؟!!

أينَ تختبئُ هذه السعادة؟ وأينَ تسكُن؟

أحسبُ أنها تسكنُ أحداقَ القيم سُكنى العبيرِ في أكمام الورد، وسكنى الحنانِ في قلوب الأمَّهات، وسكنى الشوق في قلوب المحبين.

ويتجاوز حُسنُها عوالمَ الأحداق، فيسري في الأعماقِ كما يسري الماءُ في الأوردة الظامئة، وكما يسري الحنين في قلوب الغرباء.

عندما تجودُ سحابةُ القيم بغيثِ السعادة؛ تجودُ شفَة الفجر الحالم ببَسمات الأمل، ويتهلَّل الضياء من جبين الشمس، ويعزِف الربيع ألحانَ الخصب والنماء.

تأنسُ الروحُ للسَّعادة، وترتاحُ النفسُ إليها، كيف لا وهي معزوفةُ الفضيلةِ على أوتارِ الفطرةِ السَّليمة، وقطراتُ الندى على خميلةِ الفكر، وامتدادُ الأفقِ في أحداقِ العيون المشتاقَة، وبشائرُ الأملِ في مسامع اليائسين؟!!

لكم نتمَنَّى لقاءَ السَّعادة، لأنَّ اللقاءَ بها لقاءٌ بالجمال والرَّوعة؛ يشبه لقاءَ العصافيرِ بالأفنان وهي تشكو الغرام، ولقاءَ الشُّطآنِ المشتاقة مع الأشرعة الحالمة برؤى الوَصل وهي تتجاذبُ أطرافَ الحنينِ الدَّافق، ولقاءَ السَّحابِ العاشق بخمائلِ الفلِّ والنِّسرين وهي تقاومُ الذُّبول.

تبدِّدُ السعادةُ آثارَ العَنا والألم كما تبدِّدُ الابتسامةُ الصَّافيةُ أماراتِ الحزن، وكما يشقُّ الفجرُ ستائرَ الظُّلمة. ورحلةُ الإنسان مَعَ السَّعادة أمتعُ من رحلةِ الخيالِ في عوالمِ الأحلامِ الورديَّة، وأكثرُ شفافية ورقَّة من خُدودِ السَّوسن وأوراق الأقحوان عندما تقبِّلها الفراشاتُ المحبَّة، والنَّحَلات المشتاقَة، وتنهلُ منها الرحيق.

القيمُ غراسُ السعادة، وأقمارُ الكونِ العاشقِ ونجومُه السنيَّة، تلبَسُ حُللَ البهاء القشيبةَ، فتبدو كلَّ يومٍ أحلى من الذي قَبْله. تُباري القمرَ بالحُسن، وتجاري الألماسَ بالبريق، وتفوقُ الزهرَ بطيبِ الأريج.

القيمُ نهرٌ يصافحُ شوقَ الصَّحاري المُجْدبة فتخضرُّ، ونسمةٌ شذيَّة تلامسُ خدودَ الأزهار الغافية فتضوعُ رائحةُ العطر، وابتسامةٌ صافيةٌ تلامسُ نبضَ القلوبِ الحالمة فيورقُ السلامُ، ويحيا الأمل، وموجةٌ عاشقة تقبِّلُ الرملَ فيعشوشبُ ويزدهي.

هي تلكُمُ الوصفةُ الرائعةُ التي كان يعالِج بها الأنبياءُ الناس على اختلافِ طبائعهم وأفكارهم.

لكَم أحبُّ هذه الفضائل! أراها أكثرَ روعةً من الربيع وهي تتبدَّى في سلوكِ أصحابِها الرَّائعين، قصَّتي معها مشوِّقَةٌ ومُمتعةٌ؛ لذا أجدُني أكتبُ عنها وفاءً لرحيقِها الذي كانَ شرابي المفضَّل في وقتٍ جفَّت فيه أنهارُ الأمل، وهاجرت طيورُ الفرح.

كانت يراعتي الحنونَ في وقتٍ تاهَ فيه مدادي الحائرُ فوق سطورِ خريطتي الجريحة المبلَّلة بدموعِ الكلمات. كان يطوفُ في نفسي جوٌّ من التأمُّل والإجلال الآسرِ عندما أتدثَّر بها، وأشعر أنَّ عجلةَ الزمن تتوقَّف عن السَّير، وتغفو تحت ظلالها الممدودة.

أكتب عنها في غربتِها التي طالَت واستطالَت، فلا سائلٌ يسألُ، ولا صوتٌ ينادي.

أكتبُ عنها استجابةً لنداءِ الفطرة الذي يطالبُني بإلحاحٍ شديدٍ أن أدعوَ إلى القيم، وأعرِّف بها، وأسخِّرَ لساني وقلمي لذكرِ محاسنها. أكتبُ عنها لأزيحَ عن وجهِها النَّاضر ملامحَ الأسى، وصدأ الهَجر والقطيعة. أكتبُ عنها لأميطَ اللِّثامَ عن حُسنها الفتَّان، وقدِّها الميَّاس، ومِسْكِها

الفوَّاح، وضفائرِها السَّاحرة، وأقدِّمَها في حلَّة لا أدَّعي أنَّها من أجمل الحُلَل، ولكن أحسبُ أنها جديدةٌ، وأثرُ الحاضرِ واضحٌ في ثنايا كلِّ سطرٍ من سُطورها.

أصحابُ القيمِ دعاةٌ للسَّلام، وبناةٌ للمحبَّة، يسطِّرونَ على جبهةِ الزَّمنِ الأغرِّ في كلِّ يومٍ ملحمةً من الإصلاحِ والرَّوعة والبَذْل وحبِّ الأمن والسلام.

تمشي قافلةُ الحياة على سكَّة الزمن لتقتربَ من محطَّتها الأخيرة شيئاً فشيئاً، ودواتُها السَّائرةُ تدوِّن مآثرَ أهلِ القيم والفضائل، وتعلِّقُها على جيدِ التاريخ قلائدَ من ياقوتٍ وزمرُّد.

يفنى المال، ويبلى الشباب، وتشيخُ الأيامُ، وتبقى قيمُ الناسِ وفضائلُهم عالقةً في أذهانِ الزَّمن، منقوشةً على جدرانِ ذاكرته، ويتناقلُها الرُّواةُ جيلاً عن جيل.

واعلَموا أيها الأحبَّة أنَّ تأثيرَ الوجدانِ أبلغُ من قوَّة السُّلطان، وجمالَ الأرواح أقوى من السيوف والرماح.

واعلموا أنَّ القيمَ بلسمُ الأدواء، وغذاءُ الأرواح، وربيعُ الدُّنيا، ومظلَّة الأفكار النقيَّة، وجنى السعادة النديَّة.

يزهرُ ربيعُ السعادةِ عندما تنتصرُ الحروفُ على السيوفِ، وتنتصرُ الزنابقُ على البنادقِ، ويحلُّ الحوارُ بدَلاً منَ الشِّجار، والصَّفاءُ بدلاً من الجفاء.

يُضيءُ قمرُ السَّعادة في دنيا نفوسِنا عندما نبدِّدُ غيومَ الأنانيَّة والجشَع، ونسقي غراسَ المحبَّة بماء التَّعاون والعطاء، ونتعهَّد بذورَ الإنسانيَّة بالرعايةِ الصادقة.

ولله دَرُّ محمود سامي البارودي إذ يقول:

لولا الفضيلة لم يخلُد لذي أدبٍ ... ذكرٌ على الدَّهر بعد الموت والعدمِ

المؤلف:
بدر محمد عيد الحسين

الرياض: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

نشرت بعض مقالات هذا الكتاب في شبكة

الألوكة الإلكترونية: www.alukah.net

ما الجديد في هذا الكتاب؟

الجديد في هذا الكتاب أنَّه يقدِّم وصفةً ناجعةً نحسبُ أنها تجلبُ السعادةَ؛ التي تتجلَّى في طمأنينةِ النفس، وانشراحِ الصدر، وراحَة البالِ، وصفاءِ الذِّهن، والرضا بواقعِ الحال، ومدِّ جسورِ المحبَّة والبَذل والتَّواصُل المثمر مع الآخرين؛ سعادةً روحانيَّةً حقيقيَّة، ليسَت قشوراً وبهارجَ أو زخارفَ مصطَنعة.

هو وصفةٌ تعيدُ لنفسِ القارئ الكريم الصفاءَ المحبَّب والسَّكنَ الجميل، ولقلبِه نبضاتِ الفرح، وهمساتِ الحنان، وتحملُه على التوقُّف لبعضِ الوقت ليتأمَّل روعةَ القيم، وجمالَ الفضائل، ودورَ المعاني الخيِّرة في نيلِ السَّعادة الحقيقيَّة في وقتِ انصرفَ فيه جلُّ الناس إلى الانشغالِ بالعوالم الماديَّة، والمظاهرِ الخادعَة، والصُّور المزيَّفة، واتباعِ السُّبُل التي تحقِّق المنافعَ والمكاسب الشخصية التي سَرعان ما تتلاشى حلاوتُها، ويخبو بريقُها.

يدعو هذا الكتابُ القارئَ الكريمَ للاهتمامِ بالجانبِ الروحانيِّ، لكي يغذِّيَه بالعبادةِ، ويسقيَه قطرَ الخير، وينشِّطَه بتطبيقِ القيم الفاضلَة، وممارسةِ العاداتِ الإيجابيَّة.

نحسبُ أنَّ هذا الكتابَ يساعدُ القارئَ الكريمَ على أن يجلوَ الغبارَ الذي غطَّى بلَّور النفسِ الشفيفِ، ويذيبَ الجليدَ من فوق المشاعرِ الدافئَة والأحاسيسِ النبيلة، ويوقظَ الفطرةَ الصافيةَ في النفس، ويرأبَ الصدوعَ التي حلَّت في بنيانِ القلب المعطاء، ويحفزَ القارئَ الكريمَ إلى تلمُّس جمالِ الفضيلة، والاستمتاعِ بروعةِ آثارها التي تجعلُ من نبضاتِ القلبِ أجنحةً بيضاءَ تطيرُ فوق الخمائل النَّضرة، والأزاهيرِ الشذيَّة العطرة.

هذا الكتابُ رسالةٌ إلى كلِّ قارئٍ؛ ليعيدَ النَّظرَ في أسلوبِ حياتِه، وطريقَة تفكيرِه، وحدودِ أحلامِه الورديَّة؛ لعلَّه يصحو، ويشرعُ في ترتيبِ أولويَّاته من جديد عندما يتفكَّر في نهايةِ هذه

الحياةِ وقِصَر مدَّتها، ومن ثم يبدأُ بالإعدادِ لحياةٍ سعيدةٍ في الآجلِ والعاجل؛ حياةٍ تقومُ على المودَّة والمحبَّة والصَّفحِ والتَّسامح والإصلاحِ والتَّعاونِ وصِلَة الرَّحِم والحوارِ مع الآخرين، حياةٍ تقومُ على تقديمِ صورة مشرقَة عن ذاتِه الإنسانيَّة الحقيقيَّة.

كما يقدمُ الكتابُ أطيافاً منوعةً، وضروباً متعدِّدة من ضروب التَّرويح عن النَّفس، من خلالِ أقوالِ الحكماء المعبِّرة، ونفائسِ الشعراء الموحِية، ولطائِف اللُّغويينَ الممتعَة، فضلاً عن تدوينِ مجموعةٍ من القصصِ المؤثِّرة من التراثِ الإسلامي، والعربي والعالمي.

وباختصارٍ أقول: هذا الكتابُ قطراتٌ من النَّدى أحببتُ أن أرشَّها على بذورِ الخيرِ السَّاكنَة في أعماقِ النفوس الجميلة، وأوراق الوردِ الذابلةِ في حدائقِ الأرواحِ لعلَّها تستفيقُ من سُباتها، وتبتسم.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الرَّحْمَانُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

[الرحمن: 55/1-4]

قال رسولُ الله :

«من أصبحَ آمناً في سِربِه، مُعافى في بدنِه، عنده قوتُ يومه، فكأنَّما حيزَت له الدُّنيا بحذافيرها».

حديث حسن

الإهداء

- إلى والديَّ الحبيبين رحمهما الله، وأسكَنهما فسيحَ الجنان.

- إلى أصدقائي المخلصين الذين وقفوا إلى جانبي وشجَّعوني، وتعهَّدوني بالنُّصح، وأخصُّ بالذِّكر الأخَ الأكبر والصديق الناصحَ الشاعر، والناقد المتبحِّر الدكتور وليد قصاب الذي أفدت كثيراً من خبرته الأدبية والحياتية، وكان مثال الأخ الحادب؛ والأستاذَ الأديب النبيل حمد القاضي الذي شجعني على الكتابة، ونشرَ لي بواكير قصائدي ومقالاتي في المجلة العربية؛ وفضيلةَ الدكتور الشيخ عبد العزيز الفوزان الذي لا يفتأ يثُني على كتاباتي، ويشجِّعني بكلماته النديَّة، وأسلوبهِ الدعويِّ الرائع؛ والدكتورَ المعطاء صالح الشايع مدير عام المناهج في المملكة العربية السعودية الذي أشكره على حسن ظنِّه بقلمي؛ وعلى اختياره قصصي لتكونَ نموذجاً للاختبارات الدولية في القراءة؛ والدكتورَ المربي سامر الBarودي الذي له علي فضل كبير بعد فضل الله، إذ كان يثني على كتاباتي، وطالما قال لي: إن نثرك أجمل من شعرك؛ والدكتورَ المبدع حسان الطيان الذي أثنى على كتاباتي؛ والدكتورَ المبدع يحيى مير علم الذي أكرمني بالثناء على كتاباتي؛ والصديقَ الصدوق والمثقفَ المتمكِّن الأستاذ برهان قاق الذي كانَ مثال الأخ الناصح والمحب في كل كتاب أكتبه أو مقالة أدونها؛ والأخَ الأديب الناصح الأستاذ الحصيف أيمن ذو الغنى الذي طالما ساعدني وأخذَ بيدي، وقدَّمَ لِيَ المشورةَ والنُّصح والتَّشجيع؛ والأستاذَ المبدع مروان خالد الذي أضاف إلى كتاباتي بعداً إعلامياً؛ وشقيقي الغالي عدنان الذي يشجعني، ويشدُّ من أزري؛ وشقيقي هشام الذي يقرأ ما أكتبه بشوق صادق وحس مرهف؛ والمهندسَين الحبيَبين محمد الحسين، وخالد الحسين اللَّذين يقدمان لي كلَّ تشجيع؛ والأستاذَ الكريمَ الصديق فاتح الإبراهيم الذي كان له دور كبير ورائع في إيقاظ ذاكرتي الأدبية؛ والأستاذَ المخلص حمدو الحسين الذي يقرأ كل ما أكتبه بمحبَّة؛ والأستاذ الكريم رفيق الدَّرب الصديق

حسان العثمان الذي لا ينفكُّ يشجِّعني بأسلوبه الدعويِّ الرائع وكلماته الحانية؛ وإلى الأستاذ ماجد الزُّعبي الذي يهتمُّ بما أكتبُ، ويشجعني على الكتابة؛ وإلى الدكتور ياسر درويش الذي يُكرمني بخبرته اللُّغوية الثرية؛ والأستاذ حسين العلي الذي يحثُّني إلى الكتابة؛ وإلى كل من فاتني أن أذكر اسمه من المحبِّين، أقدِّم له محبَّتي وتقديري.

السَّعادَة

الإنسان مفطورٌ بطبيعتِه على البحثِ عن كلِّ ما يُسعِدُه، ويُبهِجُه، ويحقِّقُ له منفعةً في العاجلِ أو الآجل، وتختلفُ أساليبُ الناسِ وطرائقُهم في البحثِ عنِ السعادة، ويختلفونَ كذلك في ماهيَّةِ السَّعادةِ ومعاييرِها التي ينشدونَها؛ فمن الناس من يحصِّل سعادَتَه في السفرِ والاستمتاعِ بمناظرِ الكون الخلابَة، وسحرِ الأماكنِ الأثريَّةِ، وآخرون ينشدونَ السَّعادَةَ في تَناوُل ما لذَّ وطابَ من الأَطعمة والأشربَة، وفريقٌ ثالثٌ يحققُ سعادَته من خلالِ محبَّته لزوجته وأطفاله وأرحامِه وجيرانه، وفريقٌ رابعٌ يحقِّقُ سعادته عن طريقِ المال.

وقلَّة منَ الناسِ ينشدونَ السعادةَ من خلالِ فتحِ شبابيكِ القلوبِ على مصراعَيْها لتتنفَّس المحبَّةَ، وتصافحَ الضياءَ، وتنبضَ بالوداد والنقاء، وتطمئنَّ بذكر الله.

قلَّةٌ من الناسِ يَنشدونَ السَّعادةَ من خلالِ تحريرِ أجنحةِ أرواحِهم من قفصِ الجمودِ إلى سعةِ الآفاق؛ لترفرفَ فوقَ خمائلِ الحياة الجميلة، وتتوضَّأ بندى السَّحابِ الطاهر، وتقرأَ بوحَ الشمسِ المؤثِّر للكون عند وقت الأصيل.

هل تذوَّق أحدُنا طعمَ السعادةِ الحقيقيَّة الذي يروي شرايينَ العطاءِ بماءِ السَّكَن، ويوقدُ في النفوس جذوةَ الإخلاص، ويرسمُ على الوجوه علاماتِ الرضا والسرور؟!!

هل قارنَ واحدٌ منَّا بينَ اللَّذة التي سرعانَ ما تزولُ، وبين السَّعادةِ التي تستقرُّ في النفس استقرارَ المسك في الزهر، وثباتَ الْحُسنِ في وجنتي القمر؟!!

تحلِّق السعادةُ فوق مجالسِ العلم، ولقاءات المحبِّين، وتنمو بين السُّطور الراشِدة، وتتوسَّد النفوسَ اللَّينة، والأذهانَ الصافيةَ، والوجوهَ الباسمةَ، والأفكارَ الشذية.

السَّعادةُ الحقيقية أنْفَسُ من أن تُشتَرى بمالٍ، وأسمى من أن تُمتَلَكَ بجاهٍ أو سُلطانٍ، وأبلَغُ من أن تُنالَ بكلماتٍ مَعسُولةٍ وأشعارٍ مُتَكَلَّفةٍ، وأكبرُ من أن تُوجَدَ في الولائمِ المُدهِشةِ والأطعمةِ والأشربةِ اللذيذةِ، وأعزُّ من أن تُنالَ بتَشْيِيدِ القُصُورِ والزَّواجِ من الحِسانِ.

ما أسماها من سَعادةٍ عندما نَمنَحُها للآخَرينَ! عِندما نَتَقاسَمُها مع الآخَرينَ!

السَّعادةُ ريحانةُ القُلوبِ، ومَطلبُ الخلائق المنشُودُ، ومَرْكَبُ النُّورِ المتَلألِئِ الذي يُوصِلُ النُّفوسَ إلى شَوَاطئِ الأمانِ، وصَدَى عباراتِ التَّفاؤلِ التي تَخُطُّها أقلامُ المخلِصينَ على سُطُورِ الحياةِ فتُعَمِّرُها بالأملِ، وتُزيِّنُها بالإشراقِ، وتُلبِسُها قَلائدَ الجمالِ الفاتنة.

السَّعادةُ مَجدٌ شامخٌ تَحُوكُ خُيُوطَهُ المتماسكةَ السَّجايا الحميدةُ، والقيمُ النَّضِرة، التي تُثمِرُ مَحَبَّةَ الإنسانِ وخالقِ الإنسانِ.

السَّعادةُ سكينةُ النَّفسِ وطُمَأنينَتُها، ونَقاءُ السَّريرةِ ورَوعَتُها، وطُهرُ القُلُوبِ ونُبلُها، وتَمَنِّي الخيرِ للنَّاسِ، وتَحَرِّي الإخلاصِ في الأفعالِ والأقوالِ، ومشاركةُ الناس أحزانَهم وأفراحَهم واهتماماتِهم.

السعادةُ جمالٌ تتحرَّكُ لروعته الشمسُ من مَكانها فتشرقُ، ويَنْسابُ الظِّلُّ من رقادِه فيمْتَدُّ، وتخصبُ السنابل فتنحَني، وتنطلقُ الطيورُ من وُكناتِها جذلى لترقصَ بين يدَي خيوطِ سنا الشمسِ الذهبيِّ، وتغنِّي بين يدَي المدى الرَّحب.

لَيسَتِ السَّعادةُ مَحَطَّةً نَستَريحُ فيها، أو شاطئاً جَميلاً نَستَجمُّ عِندَهُ، ولَكِنَّها شُعُورٌ بالرِّضا والاطمئنان يعقبُ العطاءَ النافع فيُغَذِّي القلوبَ المؤمنةَ ما كَرَّ الجديدانِ.

لقد تَفَنَّنَ المغالُونَ في حُبِّ الدُّنيا، والمبتَدعُونَ في تَمجيدِها وتقديسِها في الحُصُولِ على السَّعادةِ فأبَتْ أن تُمَكِّنَهُم من حَقيقَتِها، ولكنَّها قَدَّمتْ لهم صُورَتَها، وما أثَرُ صُورةِ السَّعادةِ تلك إلا كَصُورةِ الشَّمسِ التي يَرْسُمُها الرَّسَّامونَ على القَراطِيسِ، إذ تَبدُو جَمِيلةً بشَكلِها الدَّائريِّ وألوانِها الزَّاهيةِ، ولكنَّها لا تَحمِلُ من حَقيقةِ الشَّمسِ شَيئاً.

أَعْمَلَ العباقرةُ والأثرياءُ والعُظماءُ من ذَوِي الذَّكاء، والجاه، والكُنُوز، عُقُولَهُم للحُصُول على السَّعادة، فهَرَبَت منهُم، ولم تَعْبَأْ بهِم، وأدارَت لَهُم ظَهرَها، وسكَبت رحيقَها طُمَأنينَةً وأُنْساً في قُلُوبِ العابِدينَ والمُصلِحينَ ومُرَبِّياتِ الأيتامِ وكافلِي المُعَوَّقِينَ، والصَّابرينَ على البَلايا والعاكِفِينَ على الإبداعِ والعطاءِ والاستزادةِ من العِلمِ النَّافعِ.

حَطَّتِ السَّعادةُ برَوْعَتِها في قُلُوبِ المؤلِّفينَ الذين يُؤلِّفُون بَينَ القُلُوبِ والقلوب، ولَيسَ بَينَ العقاراتِ والمزارع، أو بَينَ العِباراتِ المُفسِدَةِ والمقالات البائِسة التي تمزق الأواصرَ، وتفرِّق بين الناس.

أيُّ سرٍّ في السعادةِ وأيُّ لُغزٍ فيها؟!! تتوقَّع وجودَها في القُصُورِ الفارهةِ ولكنَّها تُفَضِّلُ سُكنى خيامِ الرُّعاةِ، وأكواخِ البُسَطاءِ، وتَغفُو فوق خيامِهم الحالمةِ كما يغفو الطفلُ في حضنِ أمه.

تَنْأى عن قلوبِ السَّلاطينِ والملوكِ، وتَتَلَذَّذُ في المُكُوثِ في قلوبِ من لا يَجِدُون في بُيُوتِهم قُوْتاً لغَدِهم؛ غيرَ أنَّ أقواتَهُم قد تَحَرَّوْا فيها الحلالَ، وثياباً غيرَ ثِيابِهِم التي يَلْبَسُونَها إلا أنَّها تُدفِئُ، وتَسْتُرُ، وتُزَيِّنُ الجُسُومَ، لأنَّهم حَاكُوهَا بأناملَ مُخلِصةٍ.

السَّعادةُ كيَنَابِيعِ المياهِ العذبةِ التي تَهرُبُ مِن الأرضِ اللَّيِّنةِ الخِصْبةِ لتتفجَّرَ من أصلَبِ الصُّخُورِ، ومن أقسى الحجارةِ، وكالنَّجاحِ الباسمِ الذي لا يُنالُ إلا بإخلاصِ النيَّةِ لله عَزَّ وجَلَّ، وكَدِّ الذِّهنِ، وإعمالِ العَقلِ، وتَسخِيرِ الجوارحِ، وطَرْقِ أبواب الظَّفَرِ، وخَوضِ كلِّ الصِّعابِ في سَبيلِ تَحقِيقِهِ.

السَّعادةُ بَرِيقٌ ساطعٌ تُرسلُهُ العيونُ الحالمةُ عبْرَ كُلِّ نظرةٍ حانيةٍ إلى الكونِ وخالقِ الكونِ ومَنْ في الكونِ...

السَّعادةُ أندى من نَسيمِ الفجرِ، وأنقى من سَنَا الأصيلِ، وأشهى من المَنِّ والسَّلْوَى.

السَّعادةُ خمائلُ يتحوَّل فيها النَّدى إلى شذا، والرياحُ إلى صَبا، والبراعمُ إلى زهور، والعيدانُ الطريَّةُ إلى بَخُور، والثَّرى إلى زَعفران.

قِمَّةُ السعادةِ تَكمُنُ في فَهْمِ الإنسانِ لفحوى الرسالة التي إنَّما خُلِقَ ليؤدِّيَها، ولحقيقةِ الحياةِ الفانيةِ، وسَرْمَدِيَّةِ الحياةِ الآخرةِ.

السَّعادةُ تَتَأتَّى للإنسانِ عندما يَتَحَرَّرُ من عبادةِ الهَوَى، وعبادةِ المالِ، وعندما يعتقدُ أنَّ الأمرَ لله.

إنَّ أُناساً تَعصِفُ بِهِم نوائبُ الدَّهرِ، ويُديرُ لَهَم رَبيعُ الحياةِ ظَهرَهُ ولكنَّهم سُعداءُ من الدَّاخلِ. ورد في الحديث

عن عبد الله بن جعفر أن رسول الله قال: «إن لم تكُن ساخطاً عليَّ فلا أبالي... لك العُتبى حتى ترضى»[1].

وإنَّ أُناساً رَمَتِ الدُّنْيا بِحُظُوظِها وَسَعَتِها وأَلَقِها ورَغَدها بين أيديهم ما تذوَّقوا طَعمَ السَّعادة، وما أحسُّوا بلذَّة السَّكن؛ لأنَّهُم يَعيشونَ لِذَوَاتِهِم وأبنائِهم وأزواجِهم، وغابَ عنهم أن السَّعادةَ تَكمُنُ في العطاءِ وليسَ في الأخذِ.

وقد جالستُ أناساً يصعبُ عليهم إحصاءُ ميزانيَّتهم من النُّقود بدقَّة، لأنَّ أموالهم تزيدُ باللَّحظات، وتتضاعفُ بالدقائق، ولكنهم أشقياءُ لا يعرفونَ للسعادة طَعماً، ولا للاستقرارِ سبيلاً. تنهشُهم المشكلاتُ الأسريَّة، وتنغِّص عيشَهم المنافسةُ على حبِّ الظُّهور وغيرها من بهارج الدنيا وحظوظِ النَّفس. دخلتُ بيوتَهم فدهشتُ ممَّا رأيت، شاهدت تحفًا عجيبة، وأثاثاً فاخراً. رأيت فنونَ العالم وثقافاته تتمازجُ في منازلهم، ولكنني لم أشمَّ رائحةً للسعادة في تلكَ البيوتِ الرائعة، ولم ألحَظ أيَّ أثرٍ للسَّكن والرِّضا في وجوهِهم المترعة بالنِّعمة والنُّعومة وروائحِ الطِّيب الذي يفوقُ ثمنُ القارورة منه ما يكفي نفقاتِ أسرةٍ مدَّة شهرٍ كامل وربَّما سنة. وعلى النقيضِ من ذلك فقد زرتُ أناساً بُسَطاء ليسَ عندَهم فضلةٌ من مال، ولكنَّ حياتَهم طافحةٌ بالسعادة، مكلَّلة بالوئام، متزيِّنةٌ بالسَّكن وانشراحِ الصدر، معطرةٌ بمعاني الإنسانيَّة النبيلة. ولعلِّي أقدِّم لكلا الفريقين بعضَ الأقوال المؤثِّرة، والحكَم المفيدة مما قالَه المبدعون والمفكِّرون في السعادة:

– "السعادةُ في التَّضحيةِ وإنكارِ الذَّاتِ، وبَذْلِ النَّدَى، وكَفِّ الأذى، والبُعدِ عن الأنانيَّةِ والاستئثارِ"[2].

– " بحسب إيمان العبد يسعد، وبحسبِ حَيرته وشكِّه يشقى"[3].

وقال سومرست موم: " نَنشَأُ وفي اعتقادِنا أنَّ السَّعادةَ في الأخذِ ثُمَّ نَكتَشِفُ أنَّها في العطاءِ"[4].

وقال أوغوست كونت: " لِكَي تَحتَفِظَ بالسَّعادةِ يَجِبُ أن تَتَقاسَمَها مع الآخَرِينَ"[5].

وقال عباس محمود العقَّاد: " أعطِنِي بَيْتاً سَعِيداً وخُذْ وَطَناً سَعِيداً"[6].

ويقول سنيكا: " لا سَعادةَ تُعادِلُ راحةَ الضَّميرِ"[7].

وقال راندِل: " ازرَعِ البَسْمةَ في وَجْهِكَ تَحْصُدِ السَّعادةَ في قُلُوبِ النَّاسِ"[8].

عَرَفَ إبراهيمُ بن الأدهمِ، رَحِمَهُ الله، حقيقةَ السَّعادة فَوَجَّهَ حُبَّه وقلبَهُ ونَفْسَهُ ومَشَاعِرَهُ للخالقِ فأسكَنَ الخالقُ في قَلبِه نَفحةً من نَفَحاتِ السَّعادةِ وقَطْرةً من بَحْرِها الكبيرِ فقالَ:" لو عَلِمَ المُلُوكُ وأبناءُ المُلُوكِ ما نَحنُ فِيهِ من النَّعيمِ لَجَالَدُونا عليه بالسُّيوفِ".

ويُقال: إنَّ مَيسُونَ البَحْدَلِيَّةَ زَوج مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ حَنَّتْ ذاتَ يَومٍ إلى بيئتِها الصَّحراوِيَّةِ على الرَّغْمِ من القَصرِ الفارِهِ الذي كانت تَسكُنُهُ في أحضانِ طَبيعةِ الغوطةِ السَّاحرةِ في الشَّامِ، ومع ذلك نَجِدُها تُعَبِّرُ عن عَدَمِ سَعادَتِها وتَقُولُ:

لَبَيْتٌ تَخفِقُ الأرواحُ فِيهِ	أَحَبُّ إليَّ مِن قَصْرٍ مُنِيفِ
ولُبْسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عَينِي	أَحَبُّ إليَّ مِن لبْسِ الشُّفُوفِ
وأَكْلُ كُسَيرةٍ في رُكْنِ بَيتِي	أَحَبُّ إليَّ مِن أكلِ الرَّغِيفِ
وأصواتُ الرِّياحِ بكُلِّ فَجٍّ	أَحَبُّ إليَّ مِن نَقْرِ الدُّفُوفِ
وكَلْبٌ يَنْبَحُ الطُّرَّاقَ دُونِي	أَحَبُّ إليَّ مِن هرٍّ أليِفِ[9]

وعَرَفَ السَّعادةَ أبو هُرَيرةَ رضي الله عنه عندما لازَمَ خَيرَ الخَلْقِ وحَبِيبَ الحَقِّ مُحَمَّداً ، وتنشَّق ريَّا النُّبل والسَّماحة والنَّقاء التي تفوحُ من أخلاقِ المبعوثِ رحمةً للعالمين، رسولِ الهدى، وناصرِ الضُّعفاء، وجابرِ خواطر الحزانى والثكالى والمساكين.

ويقولُ المَنْفَلُوطِيُّ: "أسعَدُ النَّاسِ في هذه الحياةِ مَن إذا وافَتْهُ النعمةُ تَنَكَّرَ لَها، ونَظَرَ إليها نظرةَ المستريب بِها، وتَرَقَّبَ في كُلِّ ساعةٍ زَوالَها وفَناءَها، فإنْ بَقِيَتْ في يدهِ فَذَاكَ؛ وإلا فَقَدْ أَعَدَّ لِفراقِها عُدَّتَهُ من قَبْلُ"[10].

وقال ابن خلدون في المقدمة:" وأما قولهم إنَّ السعادةَ في إدراكِ الموجودات على ما هي عليه بتلكَ البراهين؛ فقولٌ مزيَّف مردودٌ، وتفسيرُه أنَّ الإنسانَ مركَّب من جُزأين؛ أحدُهما جسمانيٌّ والآخرُ روحانيٌّ ممتزجٌ به، ولكلِّ واحدٍ من الجزأين مدارك مختصَّة به والمُدركُ فيهما واحدٌ وهو الجزءُ الروحاني يدركُ تارةً مداركَ روحانيَّة وتارةً مداركَ جسمانية"[11].

وقال السباعيُّ رحمه الله:" النفوسُ العاليةُ ترى التعلُّق بمالِ الدنيا وزينتِها امتهاناً لها لا تقبلُه، والنفوسُ الدنيئةُ ترى جمعَ المال والحرصَ على الجاه علوًّا لا تتخلَّى عنه، وما أكثرَ من يدَّعون علوَّ النفس، وهم يتَّصِفون بصفاتِ الأدنياء"[12].

ويقولُ الدكتور البكار: " أما أناقةُ الروحِ ورفاهيتُها فتتمثلُ في تلك المشاعرِ النبيلة والدافئة التي تغمرُنا حين نتجاوزُ في أعمالنا مرحلةَ الواجب إلى مرحلةِ التطوُّع والتنفُّل، ومرحلة التَّضحية والعطاءِ المجاني. وتلكَ المشاعر هي مزيجٌ من مشاعر الغِبطة بما يسَّره الله تعالى وأعانَ عليه من عملِ الخير بالإضافة إلى مشاعرِ الفرح بالإنجاز، إلى جانبِ مشاعرِ الثِّقة بالنفس والتفوُّق وإلى الشعور الجوهري الذي يغمرُنا حين نكونُ على الطريق الصحيح"[13].

ورحم الله الحطيئة إذ يقول:

ولستُ أرى السَّعادة جمعَ مالٍ	**ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ**
وتقوى الله خَيرُ الزَّادِ ذُخراً	**وعِندَ الله للأتقى مَزِيدُ**

إنَّ أعذَبَ يَنابيعِ السَّعادةِ وأصفَى مَوارِدِها تلك التي تَنبَثِقُ من طاعةِ الخالقِ عَزَّ وجَلَّ.

قال تعالى: {مَنْ عَملَ صَالحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: **16/97**].

وختاماً أقولُ: السَّعادةُ الدافئةُ تلك التي تُجنَى من برِّ الوالدَينِ وطاعتِهم وزَرْعِ البَسماتِ الدائمةِ فَوقَ وُجوهِهم.

السَّعادة الحقيقة تتأتَّى من خلال الإخلاص في العمل الذي يبني الأوطان، ويرفع راياتها خفاقة في المحافل العلمية وفي معارض الابتكارات والاختراعات الدولية.

السَّعادةُ الحقَّةُ ثَمَرةٌ من ثَمَراتِ إخلاصِ النيَّةِ لله في كُلِّ قَولٍ أو فِعلٍ يَقُومُ بهِ الإنسانُ في الحياةِ الدُّنيا، فطوبى للسعداء.

التَّسامُح

التسامحُ يجلبُ السعادةَ، وينشرُ السَّكنَ في النفس لأنه سطرٌ مضيءٌ في سِفر الإنسانيةِ الأروع، وزهرةٌ شذيَّةٌ في خمائل الربيعِ النَّضرة. التسامحُ دُرَّة السَّجايا الحميدة، وشعاعُ الخير الذي ينيرُ جوانبَ القلوبِ العاتبةِ فتعفو وتصفَح، وبسمةُ الرِّضا التي ترسُمُ ملامح النُّبل على الوجوه الشاحبة فتُشرق.

التسامحُ مادَّة إنسانيَّة معجونة بأزكى الطُّيُوب. ما أشبهَه بمُزْنةٍ سخيَّة تعقُبُ عاصفةً قوية فتَهمِي بغيثها لتغسلَ وجهَ الأفق المغبرِّ فيصفو!

ما أشبهَه ببشارةٍ مُباركٍ تلامسُ مسامعَ يائسٍ قانِط، فتنتشر الأملَ في ثنايا مواجعِه، فيزهر الفرحُ في محيَّاه!

في لحظةٍ من لحظات الصَّفاء والمصالحة مع الجبلَّة يُحسُّ المرءُ بدفءِ التَّسامح الذي هو عَلَمٌ مُشرق من معالمِ النفوس الرضيَّة.

المتسامحُ كالشجرة التي لا تبخلُ بالظلِّ حتى على من يَنوي تكسيرَ أغصانِها، وقطفَ ثمارها، والنَّيلَ من قامَتها الشمَّاء التي تزيِّن وجهَ المعمورة.

هل تتصوَّرون الحياةَ من غيرِ تسامح؟!!

هل تتخيَّلون الصَّباحَ من غير إشراق، والبساتينَ من غير أشجارٍ، والعيونَ من غير أهداب، والأمومةَ من غير حنان؟!!

أنا مثلكم لا أتصوَّر الحياةَ من غير تسامح؛ لأنها لو خَلَت من التسامح لأصبحَت أشدَّ ضراوةً من حياة الغاب. المتسامحُ لا يَحقِد على إنسان، ولا يُبغضه، أو يَنال من شخصِه، أو يجرِّح هيئتَه، ولكنه ينبذُ ما نَبا من فعاله، وينكرُ ما شذَّ من سلوكه، متعهِّداً إياه بالنُّصح، مقترباً منه؛ لأنَّ القلوب إذا ما تباعدَت تنافَرَت، ومن ثمَّ خسِرَ بعضُها محبَّةَ بعض.

التسامح رحيقٌ أفضَت به الحكمةُ إلى قلبِ الإنسان العامرِ بحبِّ الإنسانِ وبارئه فترفَّعَ عن الشعور بالانتقام أو الحقد لئلا ينالَ هذا الشعورُ من بلَّورِ نفسه النقيِّ فيتكدَّر، أو يُخالطَ نبلَ فطرتِه الصَّافية شيءٌ من دُخان الحقدِ فيتعكَّر. يسمو فوقَ صغائر الأمور، ويواجهُ سهامَ اللَّمز والمكرِ البشرية بابتسامٍ ورضاً وترفُّع.

المتسامح وافرُ الفَضل، قويُّ الهمَّة،كثيرُ الصَّفح، ينظرُ إلى القِفار بعينٍ مُحبَّة فيرى فيها الواحاتِ الخُضر والغُدران الجاريَة والوديان التي تحتضنُ الماءَ بشوق، وينظرُ إلى الليل الحالكِ فيرى فيه ألَقَ الكواكب، وحُسنَ القمر، وبديعَ صُنع الخالق.

ولو تأمَّل الناسُ قليلاً في حِلم الخالق عزَّ وجلَّ على المخلوقين، وصَفحِه عن زلاتهم لرفعوا التسامحَ شعاراً، ولاتَّخذوه مبدأً.

فأيُّ تسامح أعظم من تسامُح الخالق عزَّ وجلَّ عندما يقول في محكم التنزيل: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: **39/53**].

وما أحسنَ قولَ المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا محمد عندما قال محبِّباً العفوَ والصفحَ، ومرغِّباً في التسامح فيما

رواه أبو هريرة رضي الله عنه : «ما نَقَصَت صَدَقةٌ مِن مال، وما زادَ الله عَبداً بعَفوٍ إلا عِزّاً، وما تواضَعَ أحدٌ لله إلا رفَعَه الله»[14].

ومن صورِ التسامحِ الجميلة التي بثَّها الإسلام في النفوس، ونشرَ فوحَها في الأرجاء، وحضَّ عليها رسول الله تلك التي تتمثَّل في البيع والشراء والأخذِ والعطاء؛ فالبائعُ المتسامحُ يحبُّه الله والناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «كان تاجرٌ يداينُ الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعلَّ الله أن يتجاوز عنَّا، فتجاوز الله عنه»[15].

ولعلَّنا نقرأ التسامحَ في عيونِ الأمَّهات، وفي قُلوب الآباء، ونلحظُه في مودَّة الزوجات، وفي وفاءِ الأصدقاء؛ إذ إنه يُخرجُهم من زوايا بشريَّتهم الضيقة إلى آفاقِ ملائكيَّتهم الرَّحبة؛ فيملؤون الدنيا روعة، ويَنشرون المحبَّة بين الناس انتشارَ الأرَج في نسيم الصَّبا.

التسامحُ هو تلكمُ القوَّة الخفيَّة والمنسيَّة في قِيعان نفوسنا، التي إذا ما أُبرزَت عمَّت الدنيا المحبَّةُ والسلام. ولربَّ لحظة من لحظات التسامح أوقفت حرباً، وحقنَت دماً، وجلبت خيراً عَميماً، وولَّدت حبًّا عظيماً.

ورحم الله الشاعر الكفيف بشار بن بُرد الذي قال:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً ... صديقَكَ لم تلْقَ الذي لا تُعاتبه

إذا أنتَ لم تشرَب مِراراً على القَذى ... ظَمئتَ وأيُّ الناسِ تَصفو مشاربُهْ

والشاعر الذي قال:

يا ما أُحيلى بسمةً من صاحبٍ ... لو كانَ باطنُهُ شَريكَ الظاهرِ

دعونا نتعلَّم التسامح من الأطفال، ذوي النفوس البريئة والقلوب النقيَّة، والأرواح العَذبة الرضيَّة، حيث تجدهم في قمَّة ثورتهم وانهمارِ دموعهم يرتمون بأحضان من زجَرَهم وحالَ بينهم وبين ما يحبُّون، وسَرعانَ ما يبتسمون لقطعة الحلوى.

المؤمنون كالأطفال في نقاء نفوسهم وصفاء جبلِّتهم؛ فهم متسامحون لأنهم فَهموا حقيقة التسامح العُلوي، وقَدروه حقَّ قَدره.

التسامحُ بلسَمٌ للرُّوح وراحة للجسم؛ لأن الحقدَ والغضب يوقعان النفسَ في الأمراض الفاتكة والعلل المفسدة.

يقول غاندي: «نحن لا نُعادي الأشخاص بل أخطاءَهم»[16].

وإليكم هذه القصة من الأدب العالمي التي تبرز قيمة التسامح بطريقة محببة:

«كانَ في أحدِ البُلْدانِ صَديقان متحابَّان، كانا يَقضِيانِ معظمَ الوَقتِ معاً، وكانَ الناسُ ينظرونَ إليهِما باحترامٍ

وتقديرٍ لصداقَتِهما المتينةِ.

ذاتَ يومٍ خرجَ الصَّديقان الحَميمانِ في سفَرٍ وبينَما هُما في الطَّريقِ اختلَفا على أَمرٍ ما، فصفَعَ الصَّديقُ الأوَّلُ- صاحب الجسمِ القويِّ- صديقَه النَّحيفَ على وجْهِه. تألَّمَ الصديقُ، الذي صُفِعَ، كثيراً غيرَ أنَّه كَظَمَ غَيْظَهُ، ولم يردَّ على صديقِهِ في حينِها، وابتعَدَ قليلاً، وكتبَ على الرَّمل بإصْبَعِهِ:" صَفَعَني صَديقي على وَجْهي".

واصَلَ الصَّديقان المسيرَ فشاهَدا واحَةً في الصَّحراءِ لا تبعُدُ عَنْهُما كثيراً. جدَّ الصَّديقان بالمسيرِ، وقرَّرا أن يَسْتَريحا في ظلالِ تلكَ الواحةِ، ويَتَناوَلا الطَّعامَ، ومِنْ ثَمَّ يُكْملا طريقَهُما. فجأةً، وجدَ الصديقُ الثَّاني- الذي تلقَّى صفعةً على وَجْهِهِ - نفسَه يَغْرَقُ في رمالٍ مُتَحَرِّكَةٍ، فبدأَ ينادي صديقَه ليُنقذَه.

انتبَهَ الصَّديقُ القويُّ فهبَّ مسرعاً، وقطعَ غُصْناً من إحْدى الأشجارِ الصَّحراويَّةِ، وقرَّبَهُ إلى صديقِه الغريقِ الذي سَرعانَ ما تمسَّكَ بالغُصْنِ من فَوْرِهِ. اسْتَجْمَعَ الصديقُ القويُّ قُواهُ، وراحَ يجذِبُ الجذع، ويجذِبُه إلى أن استطاعَ إخراجَ صديقِهِ الغريقِ من الرِّمالِ المتحَرِّكَة. وبعدَ أن استراحَ الصديقُ الثاني من إعْياءِ الغَرَقِ، قامَ إلى صخرةٍ، وحَفَرَ عليها:" اليوم أنقذَني صَديقي الحميمُ من الغَرَقِ".

سألَ الصديقُ القويُّ: لِمَ كَتَبْتَ يومَ ضَرَبْتُكَ على الرِّمالِ، ثمَّ حَفَرْتَ يومَ أَنْقَذْتُكَ على الصَّخْرِ؟

أجابَ الصديقُ الثَّاني: عندَما صَفَعْتَني كَتَبْتُ ذلكَ على الرِّمالِ حتى تتمكَّنَ نسائمُ المحبَّةِ اللَّطيفَةُ مِنْ مَحْوِ ذلكَ الإزعاجِ. وعندَما أَنْقَذْتَني، وَصَنَعْتَ إليَّ معروفاً حَفَرْتُ ذلكَ على الصَّخْرِ حتى لا تمحُوَه رياحُ النِّسيان، ولِكَيْ يَبْقى عالقاً في ذاكِرَتي ما دُمْتُ حيّاً».

لا مكانَ في النفوسِ الطيبة العامرة بحبِّ الخالق والتي تشرَّبت مبادئَ الإسلامِ لغير التسامح، ولا مكانَ فيها لغير الصَّفح والتغاضي عن الهفوات والزلات.

ورحم الله الشيخ مصطفى الغلاييني إذ يقول:

سامِح صديقَكَ إن زلّت به قدمُ **فليسَ يسلَمُ إنسانٌ من الزَّلَلِ**

ورحمَ الله الشافعيَّ إذ يقول:

لما عفَوْتُ ولم أحقِد على أحدٍ **أرَحتُ نفسي من همِّ العداوات**

ما أروعَنا، وأهنأ حياتنا عندما نسامحُ ونصفَح! ما أسعَدَنا عندما نُسامحُ ونصفح!

ما أشبهنا حينذاكَ بالشمس التي تُشرقُ في كلِّ يومٍ متألِّقة متزيِّنة تنشرُ سناها الذهبيَّ في الأفُق الممتدِّ كما لو كانت تُشرق أول مرَّة على الكون، فتبادرُ الرُّبا بالدِّفء، وتلامسُ شَعَفاتِ الجبال فتزرعُ فيها الأملَ والتفاؤل!

ما أشبهَ المتسامحَ بيَقَظة الفجر التي تداعبُ العيون الوَسنى، وتبدِّدُ الأحلامَ التي أرْخَت أجنحتَها فوق الأذهان الحالمة لتُعلن بدءَ يومٍ جديد!

ما أشبهَ المتسامحَ بالنَّسمات اللَّينة التي تتَهادى بين الخمائلِ الزاهية وبين الدروب فتحملُ معها أرجَ الورد وتقدِّمه لكل من أرادَ أن يشمَّ العبير!

عندما نتسامحُ نصبحُ أقربَ إلى الخالق....

أقربَ إلى الجنة...

أقربَ إلى السعادةِ الحقيقية...

أقربَ إلى الفطرة السويَّة السليمة.

التَّواضُع

يا حبَّذا المزيةُ الطيِّبة! ونِعْمَ الخصيصةُ المحبَّبة في القلوب النبيلة!

تلك القلوب التي فتَّشت عن جميلِ السَّجايا في ذَواتها، فسقَتها، ونمَّتها حتى تَرَعرَعَت في بستانِ نفسِها، ففاحَت عطراً جذبَ إليه الفراشات المزركَشَة التي تعشَق الجمال، واستقطَبَت البلابلَ التي تبحثُ عن الأمانِ والسَّلام.

إن بَذْرةَ التَّواضُع في النفس أشبهُ بالدَّالية التي تتقدَّم فناء منزل عَتيق تغطِّي باخضِرارها ونضارة أوراقها الممتدَّة ملامحَ هذا المنزل ليبدوَ للناظر لوحةً فنيةً ساحرة.

فما بالُكَ إذا تقدَّمت هذه الدَّاليةُ إطلالةَ بيتٍ جميل مَتين البناء، عالي الأسوار؟!!

فلا جَرمَ أنَّ منظرَهُ سيكون فاتناً، وكذلك فإنَّ جَمال مَظهر الإنسانِ الجميل عندما يَلتقي مع مَخبَره الطيب فإنه يَغدو يَنبوعاً متدفِّقاً يُفيض من جَنباته النَّفع والصَّلاح والعذوبة.

التواضعُ مزية تدلُّ على النُّبل والكرم ونقاءِ السَّريرة وصفاء الطويَّة؛ وهو لمسةٌ من لمسات الخالق أودَعَها في نُفوس عباده فتمثَّلها الأنبياء والرسُل والصالحون، والنبلاء والمفكِّرون الموحِّدون من البشر، الذين عَرَفوا قُدرة الخالق، وضَعف المخلوق، ووَعَوا رسالةَ الحياة الغَرورة القصيرة.

تأمَّلوا قولَ الخالق –عزَّ وجلَّ– في حثِّه على التواضُع: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: **26/215**].

المتواضع قمرٌ يَهَبُ النور، وشمسٌ تَمنحُ الدِّفْء، وابتسامةٌ تَتَكَلَّل بالفَرَح، وعَندليبٌ يُطرِب الأَيْكَ. والمتواضع رسالةُ سلام تَمشي على الأرض، وقلبٌ معطاء يُقدِّم للآخَرين إنسانيَّته ومعروفَه على طَبَق من ذَهَب، فيَسعدون بلُقياه؛ لأنهم يَجدون فيه جانباً آمناً وطريقاً سهلةً مَحفوفة بالزَّهر خاليةً من الأشواك.

وقديماً قالت العرب: "لا حَسَبَ كالتَّواضُع، ولا شَرَفَ كالعِلم".

قرأتُ التواضعَ قصيدةً مباركة في حياة الأنبياء، ورأيتُه مَنظراً بديعاً في انحِناء السَّنابل، وفِطرةً نقيَّة في سُجود الكائنات لله. عِشتُه فَرَحاً في أعيُن التلاميذ عندما يُبادرهم معلِّموهم بالسَّلام والابتسامة.

ومن أجملِ صورِ التَّواضع التي رأيتُها عندما يبدأُ أحدُ المتخاصمين أخاهُ بالسَّلام فيَخرُج دخانُ الحِقد، ويَصفو بلَّور النفس، ويحلُّ الوِصالُ بعد الهَجر، والحبُّ بعد الكُره.

التواضع دليلٌ صريح على ازدِهار الصحَّة النفسية عند الإنسان؛ لأن غِيابَه ينمُّ على اضطِراب في تَكوين الشخصيَّة، وضبابيَّة في فهم الإسلام وتطبيقه.

وحسبُ المتواضع فَخراً أنَّ الله يُحبُّه والملائكةُ ومن ثَمَّ جميع الناس. ولو استَنطَقنا التاريخَ عن سيرة المتواضِعين من العُلماء والملوك والأُمَراء والقادَة وعامَّة الناس لأجاب بإكبار، ولأدَّى التحيةَ لهم. أما أولئك المتكبِّرون فقد حَصَدوا ما زَرَعوا، وخلَّفوا سِيَراً مَشؤومَة تَفوح بالكراهية والسخط.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله قال: «ما نَقَصَت صَدَقةٌ مِن مال، وما زادَ الله عَبداً بعَفوٍ إلا عِزّاً، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رَفَعَه الله»[17].

ومَن ظنَّ أن التواضعَ ضعفٌ فقد أخطأَ الفهم، وجانبَ الصَّواب؛ لأنَّ التواضعَ ثمرةُ الإيمان، والإيمانُ لا يسكنُ في القلوب الضعيفة الخرِبَة ذاتِ الشرايين المتقطِّعة والجوانبِ المتصدِّعة، وإنما يسكنُ في القلوب القويَّة الراسية، ويألَفُ النفوسَ المتسامحة الزكيَّة. عن أبي هريرةَ رضي الله عنه ، عن النبيِّ قال: «لو دُعيتُ إلى ذراعٍ أو كُراعٍ، لأَجَبتُ، ولو أُهدِيَ إليَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لأَجَبتُ»[18].

وبرَغم تواضعِ النبي ولينِ جانبه إلا أنه كان ذا هيبَة ووقار؛ جاءه رجلٌ مرة فارتَعَدَ من هيبَته، فقال له رسول الله بكل تواضُع ومحبة: «هَوِّن عليكَ، فإنِّي لستُ بمَلِكٍ، إنما أنا ابنُ امرَأَةٍ

مِن قُرَيش كانت تأكُلُ القَديدَ»[19].

"وأصبح النجاشي يوماً جالساً على الأرض والتَّاج عليه، فأعظمت بطارقتُه ذلك، وسألوه عن السبب الذي أوجبه؛ فقال: وجدت فيما أنزل الله على المسيح: " إذا أنعمتُ لعبدي نعمة فتواضع أتممتها عليه"، وإنه وُلِد لي في هذه الليلة غلام فتواضعت شكراً لله"[20].

فيا أيها الآباءُ والأمَّهات والمربونَ أعينوا أبناءكم على تنميةِ هذه البَذرَة في نُفوسِهِم، وخيرُ وسيلة لتنميتها أن تكونوا مُتواضِعين معهم تَنبذون ما نَبا من سُلوكهم وألفاظهم، وما خالفَ الفطرةَ السليمة، رغِّبوهم في التواضع، ونفِّروهم من التكبُّر، وأَنعِشوا أَسماعَهُم بالقصص التي تُبرِزُ قيمةَ التواضع، ورحم الله الشعراءَ الذين قالوا:

ملأى السَّنابل تنحني بتواضعٍ	**والفارغاتُ رؤوسهنَّ شوامخُ**
تواضَعْ تكُن كالبدرِ لاحَ لناظرٍ	**عَلا طبقات الجوّ وهو رفيعُ**
تواضَعْ إذا ما نِلتَ في الناس رفعةً	**فإنَّ رفيع القوم من يَتواضَعُ**
إذا اعتذر َالصَّديقُ إليك يوماً	**من التَّقصير عُذْرَ أخٍ مُقرِّ**
فصُنْهُ عن عتابكَ واعفُ عنه	**فإنَّ الصَّفحَ شيمةُ كلِّ حُرِّ**

التواضعَ مَجلبَةٌ للسَّعادة والاطمئنان، ومَدعاةٌ لحُصول المحبَّة، وطريقةٌ مَأنوسَةٌ لنشر ثقافةِ السلام، وإعلانِ الصُّلح بين الإنسان ونفسِه، وبينه وبين خالقِه، وبينه وبين البَشَر كافَّة.

المتواضعون جنود المحبَّة ورفقاء النُّبل وأحداقُ العيون التي ترى الدنيا واحةً رحيبةً من التسامح وخميلة من التعاون...

وإذا ما تحلَّى الناس بقيمةِ التواضع فإنهم سيوفِّرون على أنفسهم أوقاتاً ثمينة تُهدَر في حلِّ المشكلات التي يسبِّبها الطمع والجشع، ويؤجِّجُها الكِبْرُ والاعتداد بالرأي.

ولا أُغالي إن قلت: إنَّ التواضعَ أحدُ أهمِّ الأسلحةِ في نشر العِلم والسلام والمحبَّة في أرجاء المعمورَة.

التَّعاون

عندما تمطرُ سحابةُ التعاون على حقولِ النفوس فإنَّ زهورَ العطاء تنبتُ في الأكفِّ الصَّادقة التي لا تفتأُ تصافحُ بعضها بعضاً.

عندما يتعاون القلمُ مع القرطاس فإنَّ الحروفَ تتراقَص من فوق السطور، تَراقُصَ الفراشات العاشقة حولَ مصابيح الضياء لترسما معاً لوحة الجمال والسلام.

ما أسعدَ حياتنا وأروعَها عندما نتعاونُ بمحبة! عندما نتعاونُ لنشيدَ المجد، ونغرسَ المودَّة، وننشرَ الفرح، ونجنيَ الثمار اليانعة.

أنعِم بكلِّ مكانٍ يسودُه التعاون! أحبِب بكلِّ منزل شعارُه التعاون!

ما أروع أن تتعاونَ النحلة والزهرة من أجل صُنع العسل النافع، وتقديمِه للإنسان شراباً نافعاً لذيذاً!

أيَّة لوحة فنية أرقى من لوحة التعاون التي تجسِّدها قرى النَّمل!

سكن التعاونُ قلوبَ أبناء أمة مخلصة فشادوا حضارةً عريقة فوق أرض قاحلة لا ينبتُ فيها سوى الشيح والقيصوم، ولا تطير في سمائِها إلا الغربان وزوابعُ الغبار.

وتلك أمة أخرى مزجَت التعاون مع الإخلاص والعدل فقدَّمت حضارة تقانيَّة مبهرة، ومن وسط جزرٍ وأرخبيلات لا حياة فيها إلا للأسماك الجائعة والقوارب المهترئة انطلقت مراكبُها لتحطَّ فوق تلالِ زُحل وصخور المريخ.

أنَّى للقريحة أن تجودَ بالقَريض إذا لم ينبِض القلب، وتصفو النفس، ويحلِّق الخيال، وتتعانق الأفكار مع الأبجدية؟!!

قال عليه الصلاةُ والسلام في الحديث الصحيح: «مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحمَّى»[21].

ومن جميل ما قرأت للجاحظ قوله: " ثم اعلم –رحمك الله– أن حاجةَ الناس إلى بعضهم صفةٌ لازمة في طبائعهم، وخلقةٌ قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلُهم، ومحيطةٌ بجماعاتهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم. وحاجتُهم إلى ما غابَ عنهم– مما يُعيشهم ويُحييهم، ويمسكُ بأرماقِهم، ويُصلحُ بالهم، ويجمعُ شملَهم، وإلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتَّوازر على ما يحتاجون إليه من الارتفاق بأمورهم التي لم تغِب عنهم.... ولم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجتَه بنفسه، دون الاستعانة ببعض من سخَّر له، فأدناهم مسخَّر لأقصاهم، وأجلُّهم مسخَّر لأدقِّهم"[22].

أنى للأسرة أن تنجح إذا لم يحمل الأبُ معول العطاء ومِشعل التوجيه، وتحمل الأم قِرابَ الحنان بيَد وقراطيسَ التربية باليد الأخرى، ويلبسُ الأبناء ثياب الطاعة؟!!

همست الشمس للقمر فتبدَّدت ظلمةُ الليل بإذن الله، وامتلأت الآفاقُ بالحسن الآسر والضياء الأخَّاذ، وأنشدَ الليل والنهار أنشودة الحبِّ الدائم المتناغم.

ما أشد حاجتنا إليك يا أيها التعاون! تحتاجُ إليك الحقولُ القاحِلة، والمدارس الحزينة، والأسَر المفكَّكة، والأحياء المتنافرة، والدول المتناحِرة، والأمم المتباغضة والمتنافسة.

شوقُنا إليك يزداد يوماً بعد يوم، وحاجتنا إليك ملحَّة. تعال أيها التعاون، تعال في أيِّ وقت تريده، وفي أي شكل تراه. تعال فقد ضيَّعت الفرقةُ أمجادَنا، ونالَت من قلاعِنا الشامخة، وجعلَتنا قبائلَ متفرقة، وأسراً مفكَّكة، وجماعاتٍ يَنالُ من تاريخها وأصالتها القاصي والداني. تعال لترمِّمَ البيت المصدَّع، وتشيدَ القلاع المهدَّمة، وتنسجَ الراية الممزَّقة، وتصلح النوافذ المكسَّرة، وترسمَ الخريطة المتعرِّجة. تعال لعلَّ العطر يفوحُ من ضفائر المحبة، وتفترُّ الابتسامات من ثغور الأطفال الذابلة، وتخضرُّ الضِّفاف حول الأنهار التي نضبت حزناً على الربَّان الذي فقَد البوصَلة وضلَّ الطريق ولم يعُد بعد.

أعلم أنَّك عاتبٌ علينا لأننا أضعناك وهجَرناك، ولكنَّنا الآن عرفنا قَدْرَك، أنت كالأم للطفل الرضيع، وكالمركب لمن تاهَ في ظلمات البحر، وكالخميلة الغناء للبلابل المغرِّدة.

عرَفنا قَدْرك عندما وجدنا أنفُسَنا في آخر الرَّكب نتعثَّر فوق أراضينا القاحِلة، بينما سبَقَنا الآخرون، وراحوا يمشون على الجسور التي تربط بين البحار والجبال، وبين القارات والقارات. عرَفْنا قَدْرك لأننا صرنا ننتظر رحمةَ الأمم المتقدمة لترسلَ لنا لَقاحاتِ أطفالنا، وبلَّورَ نوافذنا، وأقفالَ منازلنا، وحبرَ أقلامنا. هجرتنا لأنَّ صخبَ خلافاتنا، وتنافرَ نيَّاتنا وأنانيَّتنا المقيتة عكَّرت عليك صَفوك ونقاءَك.

هجرتنا لأنَّ غراسَك الطريَّة لا تنبتُ في التربة المالحة، وكواكبَك المنيرة لا تتألَّق في الجوِّ الغائم، وطيورَك الجميلة لا تغرِّدُ فوق الحقول المقفرة.

أحببناكَ الآن، وعشقناكَ، وبتنا نفتِّش عنك في كل مكان، ننبشُ بين سطورِ المفكرين والشعراء لنقرأَ عنك وعن فضلك في الحكمِ والأمثال والأشعار، وإليك جُزءاً يسيراً مما قيل فيك.

– ديل كارنيجي: "عندما يعمل الإخوة معاً، تتحوَّل الجبال إلى ذهب"[23].

– نيوتن: "إذا كنت قد استطعت أن أرى أبعَد من غيري، فلأنني وقفتُ على أكتافِ عددٍ كبير من العمالقة"[24].

وظلَّ شوقنا إليك كثيراً، فرحنا نقلبُ صفحات دواوين الشعراء الذين زيَّنوا قوافيهم بمعانيك، ومما وجدناه مكتوباً عنك في أشعارهم:

معن بن زائدة:

كونوا جميعاً يا بنيَّ إذا اعترى	**خطب ولا تتفرَّقوا آحادا**
تأبى العصيُّ إذا اجتمعن تكسُّرا	**وإذا افترقن تكسَّرت آحادا**

السريُّ الرفَّاء:

إذا العبء الثقيل توزَّعته	**أكفُّ القوم خفَّ على الرِّقاب**

حافظ إبراهيم:

إذا ألَمَّت بوادي النيل نازلة	**باتت لها راسيات الشام تضطربُ**
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألمٍ	**أجابه في ذرا لبنان منتحبُ**
لو أخلص النيل والأردنُّ ودَّهما	**تصافحت منهما الأمواه والعشبُ**

لا تحزن أيها التعاون سنزرع بذورَك في نفوس أبنائنا، ونكتبُ شعارك فوق صفحات كرَّاساتهم البيض، لعلَّ الجيلَ القادم يعرف قَدرك، ويقدِّر أثرك وثمارك، ويعي أنَّك الجسر الآمن الذي يوصل السُّراة إلى مقاصدهم السَّامية.

ما أجمل التعاون! وما أفضل نتائجه!

الصِّدق

الصِّدق شريانُ السعادة، وغرسةٌ من غراسها المثمرة ذات الخضرة الدائمة، وبوابةُ الوُلوج إلى الطمأنينة والسَّكَن. يتصدَّر الصِّدقُ مكارمَ الأخلاق كما تتصدَّر الشمسُ مجموعةَ الكواكب، فهو روضةُ القلوب الغنَّاء، وزهرةُ المروءةِ الفيحاء، وابتسامةُ الضَّمائر الحيَّة.

الصِّدق بساطُ المحبَّة الناعم، وعُرا الألفة المتماسكة، وظلُّ السِّدرة المتراخي في وقت الهاجرة.

وُلِد معَ أولِ إطلالةٍ للشمس على ربوعِ البريَّة، وهمى مع أول سحابةٍ ماطرة بثَّت ظماءَ التلال أشواقَها البِكر، وفاحَ مع أوَّل نسمةٍ شذيَّة هبَّت على أرجاء المعمورة.

تكتنفُ سَمْتَ الصدق طلعةٌ رائقة ذاتُ مهابة ووَقار، وتعلو جبينَه مسحةٌ لطيفةٌ من الوَسامة. هو درَّة في ليلٍ تدجَّى، وبريقٌ في جوهرة لم يحجُبْ سَناها طينُ القيعان أو زَبَدُ الموج الثائر.

قرأتُ عنه في الكتب فوجدته في أروع السُّطور، وأسمى المقامات، وأرفعِ الدرجات، ونشدتُه في الناس فوجدتُه في أزكاهم نَفساً، وأطيبهم مَحتداً، وأحاسنهم أخلاقاً، وأنقاهم قلباً.

بحثتُ عنه في الشعر فوجدتُه وقد استحوذَ على أبلَغ الصُّور البيانيَّة، وأعذب التعابير وأرقِّها.

ما أشبهَه بالكلأ الزاهي الذي يحرِّكه نسيمُ الصَّبا المندَّى بطيوبِ الفجرِ، في الوقت الذي يَعجِز فيه دَويُّ الرَّعد الغاضب وثورةُ الزلازل المهتاجة عن تحريكه.

لكم جرَّبت من الأصدقاء فكانَ الصدقُ هو الأوفى، ولكم عاشرتُ من الصُّلَحاء فكان الأصلحَ.. كيف لا؟! هو صوت الحقِّ، ولغة البيان، وثمرةُ الإيمان..

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: **9/119**].

فما أبلغَها من آيةٍ أبرَزت قيمةَ الصِّدق، وجعلته أشبهَ بجذرِ الشَّجرة الذي تتغذَّى منه الأغصان، فالأوراق، فالبراعم، ثمَّ الثمار اليانعة!

وأما إذا عَقِمَ الجَذرُ، وأصابه المرضُ فأنَّى لأغصان الشَّجرةِ أن تتجمَّل بالأوراق الزَّاهية، أو تُعطي الثَّمر اللذيذ؟

عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، عن النبي قال: «إنَّ الصِّدقَ يَهْدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الرَّجُل ليَصدُقُ حتَّى يُكتبَ عند الله صِدِّيقاً، وإنَّ الكَذبَ يَهْدي إلى الفُجُور، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ عندَ الله كَذَّاباً»[25].

نعم، هذا هو الصِّدق المثمرُ الذي تشكَّلت ملامحُ روعته في نفس الصادق الأمين والمبعوث رحمة للعالمين محمد ، فاقتدى به محبُّوه، وأنصفه حسَّادُه ومُبغضوه، وذاك الذي عرفه أبو بكر رضي الله عنه جِبِلَّةً فعُرف به منارةً، وسكنَ قلبَ رِبْعِيٍّ بن عامر فواجَه به رموز الباطل، وترعرع في صوتِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فوصل بإذن الله إلى جبال العراق ليُلامِسَ أُذُنَي سارية.

ماشى بلالٌ الصدقَ فتحدَّى به زعماءَ الكفر والطُّغيان، وراح ينثُر إشراقات كلمة التوحيد عبرَ صوته الحاني غَماماتٍ تُظلُّ الحَزانى واليَتامى، وبيارقَ من المجد تُؤجِّج في النفوس جَذوةَ الإيمان، وترسمُ ملامحَ دروبِ الهداية التي تَخذَت من غارِ حِراء نُقطة الانطلاق. لعمري إنَّ شُعاع الصِّدق نفَّاذ، ومعانيه كثيرةُ الامتداد، وأينَما حلَّ فهو محبَّب ومنعَّم، فما أنداه في قُلوب الآباء وعلى ألسنتهم، وهو يتحدَّر سَلسبيلاً عذبَ المذاق يتلقَّفه الأبناء، ويُسكِنونَه قُلوبَهم ومحاجرَ عيونهم.

وما أعذَبَه حينما يتدفَّقُ مع حنانِ الأمِّ، تلكُم المربيةُ العظيمةُ التي تصنعُ أمجادَ الأمَمِ، وتَحوكُ بَيارق العزَّة. وأنعِم به من خصيصة في شخصية المعلِّم؛ فيشجِّع الطلابَ الصادقين، ويقوِّم مَن لم يأخذ الصِّدق مأخذَه فيه.

فمَن كان الصِّدقُ مَبدأَه فليَهنأْ عَيشاً، وليَطمئنَّ بالاً؛ لأنه مُمسكٌ بسَنام الحقِّ وحِبال التوفيق.

وورَدَ في صحيح مسلم عن رسول الله أنه قال: «مَن سألَ الله الشَّهادةَ بصِدقٍ بلَّغَه الله منازلَ الشُّهداء، وإن ماتَ على فِراشِه»[26].

ولسموِّ مَقصِد الصِّدق ونُبل مَكانتِه تناوله الكُتَّاب أجملَ تناول، فأودعوا في ثنايا سطوره السنيَّة أحسنَ الكَلِم، وأرق العبارات.

يقول أمين الرَّيحاني: (ازرَع الصِّدقَ والرَّصانَة تَحصُدِ الثِّقَةَ والأمانَة)[27].

ويقول إبراهيم اليازجي: (الصِّدق عَمود الدِّين، ورُكن الأدَب، وأصلُ المروءة)[28].

ويقول الكاتب العالمي ديوجين: (الصادقُ مَن يَصْدُقُ في أَفعالِهِ صِدقَه في أَقواله)[29].

ورحمَ الله شوقي إذ قال:

والمرءُ ليسَ بصادقٍ في قَولهِ	**حتّى يُؤَيِّدَ قولَه بفعالِ**

ورحم الله الشاعرَ الذي قال:

الصِّدقُ أفضَلُ شيءٍ أنتَ فاعلُه	**لا شيءَ كالصِّدقِ، لا فخرٌ ولاحَسَبُ**

ورحم الله القائل:

ما أحسنَ الصِّدقَ في الدُّنيا لقائلهِ	**وأقبَحَ الكِذْبَ عند الله والنَّاسِ**

ما أقواهُ من وشيجةٍ، وأمْتَنَه من مُرتكَزٍ في علاقات الناس ومعاملاتهم، فحسْبُ المرء أن يقولَ عنه الناس إنه صادق، لأنَّ وَهجَ الصِّدق المتألِّق إذا ما خَبا في سماء صاحبه فإنَّ إنسانيَّته ستُطعَن في الوَريد، وحديثُه سيكون أشبهَ بتُرابٍ على صَفوان في يومٍ عاصف، وأشبهَ بسحابةٍ من الدُّخان لا تَلبَثَ أن تتشكَّل حتى تَتلاشى في فضاءِ الكون الفَسيح من دون أن يبقى لها أيُّ أثرٍ.

وعندما يسكنُ الصدقُ قلبَ التاجر، ويدَ الصانع، وعينَ الحائك، ولسانَ المحدِّث، وقلمَ الكاتب، ومخطَّطَ المهندس، ووصفة الطبيب، عندئذٍ تبتسمُ زهورُ النجاح وتضوع بالعطر، وتتلألأُ مشاعلُ الضياء في سماء الأمَّة.

بالصِّدق نعيش بأمان، وسعادة. بالصِّدق تبدو الحياة أحلى وأسمى وأغلى. الصِّدق أقصر الطرق للحصول على ما نريد.

وليس كلُّ ما نقوله ونحن صادقون صدقٌ محمود، فليس من الصِّدق أن يقولَ المعلِّم لطالبه المقصِّر: أنت كسولٌ جداً. ويقولَ المقرئ لتلميذٍ له يُتأتِئُ في القراءة: أنت قارئٌ مُتلَعثِم أو أنت فأفاء وتمتام. ولا أن يقولَ الزوج لزوجته القَصيرة: أنت قَزمَة، ولا أن يقول الجار لجاره: أنت جارٌ سيِّئ.

فالصدق لا يَتنافى مع مُداراة المشاعر ذاتِ المقاصِد النَّبيلَة التي تُعنى بأحاسيسِ الإنسان ونَفسِه الشَّفيفة.

الصدق الجميلُ والنافعُ هو الصدقُ الذي يكون ثمرةً للدِّين والإيمان، وهو الذي يُجزى عليه المرءُ خيرَ الجزاء، وهو القيمة التي تَبني وليست القيمة التي تهدِم.

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: **16/97**].

ويقول الفيلسوفُ الألمانيُّ فيخته: (الأخلاقُ مِن غَير دينٍ عَبَثٌ)[30].

ويصرِّح الفيلسوفُ كانْت قائلاً: "لا وجودَ للأخلاقِ دون اعتِقاداتٍ ثلاثة: وجود الإله، وخُلود الروح، والحساب بعد الموت"[31].

فأعطَرُ التَّحايا وأعطرُ الأشواق لأُولئك الصادقينَ الذين رسَموا في البريَّة خريطةَ العزَّة والمروءة والرُّجولة والصِّدق مع الله في الأقوال والأفعال. وإليكم قصَّةً موحيةً حيثُ تجسِّدُ فضيلة الصِّدق بأفضل صورة:

«أرادَ ملكُ الصِّينِ أن يتزوَّج، فجمعَ حسناواتِ البلادِ جميعهنَّ، وعندما حضرنَ إلى القصرِ بزينتهنَّ وصباهنَّ دخلَ الملكُ وأعطى كلَّ واحدةٍ منهنَّ بذرةً، وقال: على كلِّ واحدةٍ منكنَّ

أن تزرعَ هذه البذرةَ وتهتمَّ بها، وبعد عامٍ ستحضرنَ جميعاً إلى هذه الصَّالة، وسأتزوَّج صاحبةَ النَّبتةِ الأجمل والأزهى.

مرَّ العامُ وحضرت الفتياتُ الحِسانُ. كانت كلُّ واحدةٍ منهنَّ تحملُ نبتةً تشعُّ اخضراراً. دخلَ الملكُ وراحَ يستعرضُ النبتاتِ، فوقعت عينه على فتاة تحمل وعاءً فارغاً مليئاً بالتراب. اقتربَ منها الملك، وسألها: لماذا لم تنمُ نبتتُك؟

أجابت الفتاةُ: زرعتُ البذرةَ ولم تنمُ.

فقالَ لها الملك: أنت زوجتي لأنك تحملين فضيلة الصدق، والبذور التي أعطيتها لجميع الفتيات كانت عقيمةً».

وأجمل الشُّكر والتقدير للصَّادقين الذين يعيشون بين ظَهرانَينا، ويَبرقُون في سمائنا الغائمة، ونحن في زمنٍ خَوى فيه نجمُ السَّجايا الحميدة، وزُهِد في لسان الصِّدق. وافرُ الثناء لِمَن ترسَّموا نهجَ الصادقين فصَدَقوا مع أنفُسهم؛ لأنهم عرفوا نَفاسَة جَوهرها الرَّفيع الذي خلقَه الله سبحانه وتعالى، وصَدقوا مع خالقهم لأنهم عرَفوا قَدرَه، وتيقَّنوا أسرارَ حِكمته في خَلقِه، وصَدقوا مع أَوطانهم فذادوا عنها بالغالي والنَّفيس.

الصَّادقون يشعرون بالأمن والأمان ولو كانوا وجهاً لوجه مع السيوف والمدافع وأزيز الرصاص.

المنافقون يفتقدون الأمن مع أنهم يرقدون في غرفٍ سُبكت من الرَّصاص والحديد وعلى أبوابها الحرَّاس المدجَّجون.

الإصلاح

الإصلاحُ سببٌ من أسباب نيل السعادة؛ فهو عطرُ الإيمان، وربيعُ قلبِ الإنسان، ومنارةُ الفرحِ التي تنشرُ الأمانَ والودادَ بين القلوبِ والقلوبِ، والدروبِ والدروب.

الإصلاحُ قوَّةٌ عظيمة يهَبُها الله سبحانه وتعالى للأصفياءِ والأتقياءِ وأنقياءِ السَّرائر والضَّمائر فيحرِّكون بصدقِ محبَّتهم ونُبل نيَّاتهم نبضَ المحبَّة في مشاعرَ تصلَّبت، وقلوبٍ تحجَّرت، ونفوسٍ ازدحمت فيها كلُّ أنواع الشَّحناء والبغضاء.

كما أنَّ الجبالَ تثبِّتُ الأرضَ، وتضمنُ توازنها واستقرارها فإنَّ المصلحين يحققون التوازن بين النفوس والنفوس، وبين الشعوب والشعوب.

إنَّ الدُّنيا بكلِّ بهائها لتُصفِّقُ للمُصلح، وتحني هامتَها احتراماً له، والنجوم بكلِّ ما تحتويه من جمال لَتخبو إذا ما تلألأت أنوار الفضيلة في قلوب المصلحين.

هم شعراء الحبِّ، وكتبةُ المواثيق الطاهرة، وحاملو مشاعل النور في ليالي العَتَمة.

وليس غريباً، لأنَّ من يسقي ضفاف القلوب الجافَّة فَتُعشب وتخضرُّ، ومن يَجلُو أماراتِ الغضَب من فوق الوجوه فتُشرق، لهو طَودٌ شامخ، وعالمٌ مِصقَع، وإنسانٌ أصيل.

من يؤلِّفُ بين القلوب والقلوب، ليحقِّقَ سلاماً، ويزرعَ مودَّة أسمى ممن أغلقَ عليه بابه، وطفقَ يؤلفُ بين السطور والسطور ليصنَعَ كتاباً، أو يحصل على شهادة عالية.

الشعراء الحقيقيون هم الذين يجمعون شتاتَ النفوس المتنافرة والأفكار المتناثرة فيبنون بيوتَ الحياة على شواطئ بحور المحبَّة.

سعادة المصلحين تكمن عندما يتصافحُ المتخاصمون، ويتبادلون التحايا، وعندما تنتصرُ الحروف على السيوف، وتتفوَّق الزنابقُ على البنادق، وتطرُدُ نسائمُ الصفاء سحائبَ البغضاء، وعندما يبدِّد ضوء القمر خيوط الظلام، وضغائن البشر.

أيُّ صنيعٍ أنبل من صنيعِ إنسانٍ أصلحَ بين زوجين متخاصمين، وأعادَ لأطفالهما الأمان والحنان والبسمات البريئة؟؟

أيُّ نجاحٍ أعظم من نجاحِ الأطباء المبدعين الذين يعالجون نبضات القلوب، وخلجات النفوس، ورمشات الأهداب، وأحاسيس الخواطر..؟؟!!

المصلحون يُرهقون الأبجديَّة لإيجاد عبارات بليغة راقية تتواءمُ مع سمو مقاصدهم، وعلو أفكارهم لأن لغةَ الإصلاح شفيفةٌ مأنوسة، قريبة ليِّنة، تكادُ تكون كتلك التي يتفاهم من خلالِها الفراشُ مع الزَّهر، والأصيلُ مع البحر، والبلابلُ مع الأفنان، والنَّدى مع الأقحوان.

إنَّ من يغوصُ في أعماقِ النفوس فيجذبُ أحاسيسَ الخير، ويوقظُ النوازعَ الطيبة أمهرُ ممَّن يغوصُ في أعماقِ البحار ليستخرج اللؤلؤ والمرجان.

ما أحوجَ الدُّنيا إلى مصلحين يلطِّفونَ الطَّقسَ العاصف، ويملؤون ذرَّات النسيم بالأريج فتبدو لينة عاطرة.

ما أحوجَ الشفاه الجافَّة والوجوهَ المغبرَّة إلى كلماتٍ دافئة من حَمَلَةِ البشائر وجابري الخواطر.

ما أحوجَ القلوب العاتبة إلى مصلحين يقدِّمون إجاباتٍ متفائلة عن التساؤلات المكبَّلة بإشارات الاستفهام الكثيرة.

أيَّتها الأمهات أرْضعنَ فلذاتِ أكبادكنَّ لبنَ الإصلاح، وعوِّدنَ النَّشْءَ على التسامح والمحبَّة والصَّفح. أيُّها الآباء تعاهدوا بَذْرة الإصلاح في نفوس أبنائكم بالسقاية والرعاية، وكونوا مُصلحين وقُدوات حقيقيين ليترسَّمَ أبناؤكم نهجكم.

أيها المعلمون عطِّروا مسامعَ طلابكم بقصص المصلحين من الأنبياء والصَّحابة والتابعين والموفَّقين، ولا ننسَ أولئك الرائعين الذين يعيشون بين ظهرانينا.

يا رباه، أَفِض بركاتك على قلوب المصلحين رِضاً وسروراً، وأفض رحماتك على ديارهم خيراً عميماً، وعلى ذرياتهم صلاحاً، وعلى صحائفهم حسناتٍ وفيرة.

أيُّ سَعيٍ أجدى وأسمى من سَعي المُصلح!!

أيُّ نجوى أنبلَ من كلمةٍ طيبة يودعها المصلح في مسمع المتخاصمين...؟

قال تعالى: [النساء: **4**/114].

قد يظنُّ بعضُ المغترِّين بقوتهم وبجاههم أنَّ الحرب في مصلحتهم، وأنَّ الغلبةَ لهم، ولكنَّ الصُّلح خيرٌ لهم. لو تأمل أولئك في سِيَرِ الأقوام السَّابقة لوجدوا كيف أنَّ الله نصرَ فئاتٍ قليلة ترجو السلام وتتحرَّى الأمن على فئاتٍ كثيرة تنزِعُ للغطرسة، وتنحازُ إلى الكِبْر.

وقال تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: **4/128**]

المؤمنون إخوة، وكيف لا يكونون إخوة وكلمةُ التوحيد تنتظمُ قلوبهم، وتؤلِّف بين مقاصدهم الراقية، وتوحِّد آمالهم وآلامهم!

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: **49/10**]

فعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قال: سمعتُ رسول الله يقول: «ليس الكذَّاب الذي يُصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً»[32].

والمصلحون أشبهُ بصمامِ الأمان حيثما حلُّوا، قال تعالى في محكم التنزيل: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: **11/117**].

يقول الدكتور علي النملة في كتابه صناعة الكراهية بين الثقافات: "لا مندوحةَ عن تفعيلِ سبل التفاهم بين الثقافات، مع الاعتراف بالفروقات التي لا تطغى على جوانب الالتقاء، واتخاذ التدابير لهذا التفعيل، وتذليل العقبات التي تصد عن الاستمرار في عمارة الأرض والاستخلاف عليها، ومن ثم التقليص من الكراهية بين الثقافات، ولن يفضي هذا التفعيل، على سبيل الاحتراز، إلى التنازل عن الثوابت وتجاهل الأصل في العلاقات، بين الأمم وثقافاتها

وحتمية وجود الاختلاف"[33].

لَعمري إنَّ ساعاتِ الإصلاح أكثرَ فرحاً وبهاءً من ساعات الفُرقة والخُصومة..

ويا طول شوقي لعالمٍ يغشاهُ المخلصون والمصلحون، لترفرفَ حمائمَ السلام البيض فوق خمائل الأمان.

الوفاء

كم نسعدُ بوفاء أصدقائنا!

كم نتألم، وتخيبُ آمالنا، وتضيقُ الدنيا – على اتِّساعها – علينا عندما يجفونا الآخرون، ولا يبادلونَنا مشاعر الوفاء!

بالوفاء تستمر الصُّحبة وتزهر لأن الوفاءَ مِسك الصداقة، وعطر الأخوَّة، وشريان الإنسانية المتدفِّق.

الوفاء استتمامٌ لما يُقْطعُ على النفس[34]، وبرٌّ بالوَعد، واستكمالٌ للعمل، وصدقٌ مع الخِلِّ وغيره.

وحُسنُ الوفاء يتبدَّى في قُبح نقيضِه من إخلافٍ للوَعد، ونقضٍ للعهد، وخيانةٍ للصَّديق، وحِنثٍ بالقَسَم.

وأجملُ الوفاءِ ما كان للخالق عزَّ وجلَّ؛ الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهَدى، والذي أخرجَ المَرعى.

الوفاءُ للخالق يتمثَّل في توحيدهِ وعِبادتِه وشُكره بالأقوال والأفعال، وحُسنِ معاملةِ عيالِه والصِّدق معهم.

الوفاء كنزٌ عظيم، وخُلقٌ كريم، وسَجيةٌ نبيلة تتقلَّدها النفسُ الطيبةُ عِقداً، وتحتضنُها شُعوراً فيَّاضاً يزدحم في ذاتِها، فتُرسلهُ تارةً على شكلِ عطرٍ يفوح، وأُخرى على شكل أمَلٍ يُلامسُ المشاعرَ الإنسانيَّة الصافية ليَفتَرَّ عنها ضياءُ التفاؤل.

الأوفياء بُناةُ عُرا الودادِ بين النفوس، وناشرو الفرح في القلوب.

الأوفياءُ حديقة الأمان الظليلة وبستان الأشجار ذات الخضرة الدائمة.

الحسناتُ يُذهبنَ السيئات، والفضائلُ تُعمي عيونَ الرَّذائل؛ إذْ تنبهرُ الأخيرةُ من ضِيائها، وتصغُر، ثم تنكمشُ على نفسها، وتتلاشى أمامَ بهاء الفضائل وجَلالها؛ لأن الحقَّ أبلج، والباطل لجلج.

الوفاء نجومٌ تتلألأ وربيعٌ يُزهرُ، وأغصانٌ تثمر، أما الغدرُ فعتمٌ دامِس، وريحٌ صَرصَر عاتية.

قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: **3/76**].

وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُّمْ} [النحل: **16/91**].

رَفرَفَ الوفاء بجناحَيه فوق البساتين النَّاضِرة، يبحث عن غُصنٍ يَحطُّ عليه، فما وجدَ أزهى ولا أندى، ولا أدفأ من حِضن الأم.

نعم، لقد سكنَ قلبَ الأمِّ الحنون فوجدَ عندها ضالَّته؛ إذ احتضنَه قلبُها، ومسحَت يَداها على جَناحَيه الزَّاهِيَين، فهذَّبت الريشَ ومشَطَتْهُ، وسقَتْه من وَريدها، وغطَّتْه بشَغافِها، وعندما تروَّى من الأمان، وتعطَّر من الحب، أرسلَتْهُ حمامةَ سلامٍ تهدِلُ بألحانها، وتترنَّم بكلماتها حاملةً رسالةَ المحبَّة والوئام، وبلبلاً يُغرِّدُ فوقَ الخمائل، فتطرَبُ الفراشاتُ لصوته، وسعادةً تنسكبُ في أنسامِ المدى لتجودَ به ندى يكلِّلُ البراعمَ المشتاقة.

الوفاء يكسو وجهَ صاحبِه مهابةً ونُضرة، ويورثُ حياةَ القلب، لأنه رحيقٌ تُنتجه زهرةُ الإيمانِ المتفتِّحةِ والمُشرقَة في النفوس الرَّضيَّة.

ولكَم نشعرُ بالسَّعادةِ عندما يَهمِسُ لنا صديقٌ بكلمةِ حُبٍّ، ويبوحُ طالبٌ من طلابنا بهمسةِ احترام، ويقدم جارٌ

من جيراننا لمسة حنان.

الوفاءُ كالسَّحاب الذي إذا ما تماسَكَت عُراه، وانتَظمت ذرَّاته، وتورَّدت وَجَناتُه فإنه لابدَّ أن ينهمرَ بالغَيث الذي هو مادةُ الحياة الرئيسة.

إذا تمكَّن الوفاءُ من نفس طيِّبة فإنَّ خُيوطَ ضيائِه ستخترقُ جُدرانَ القلب، لِتُفيضَ من يَنْبوعِ الأُبُوَّة حِرصاً ومَبدأً، ومن حَنان الأم تضحيةً، ومنَ الأبناء بِرّاً وطاعة، ومن خَندَقِ الجنود إيماناً وذَوداً عن الدِّين والوطن.

ومن صُورِ الوفاءِ الرائعة وفاءُ الزوجِ لزوجته، والزوجةُ لزوجها، فقد سطَّر نبيُّ الرحمةِ محمدٌ أصدقَ معاني الوفاء لزوجهِ خديجةَ رضي الله عنها فكان لا ينفكُّ يذكرُ محاسنَها وفضائلَها، ويدعو لها بالمغفرة، وهي المبشَّرة بالجنَّة، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «هذه خديجةُ قد أتَتك بإناء فيه طعامٌ، أو إناء فيه شراب، فأقرئها من ربها السلام، وبَشِّرها ببيتٍ في الجنَّةِ من قَصَب لا صَخَبَ فيه ولانَصَب»[35].

الوفاءُ بالنَّذرِ واجبٌ على المسلم، وهذه لمسةٌ بيانيَّةٌ قرآنيَّة رائعة تدلُّ على مكانة الكلمةِ عند المسلم وأهميَّتها، قال رسولُ الله : «من نذرَ أن يطيعَ الله فليُطعه، ومن نذَر أن يعصيَه فلا يعصيه»[36].

وقال تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: **76/7**].

ودونَكُم بعضَ الروائع الشعرية التي قيلت في الوَفاء:

وَفاءُ الفتى يُغني ومَن عُدِمَ الوفا	**فلم يَكْفِه أن يملكَ الغربَ والشَّرقا**
لا تركَنَنَّ إلى مَنْ لا وَفاءَ له	**فالذِّئب من طَبعه إنْ يَقْتَدِر يَثِبِ**
عودوا لما كنتُم عليهِ من الوَفا	**كَرَماً فإنِّي ذلك الخلُّ الوفي**

وقيلَ أيضاً:

- (الجُودُ بَذلُ الموجُود، والوَفاءُ تَحقيقُ الموعود).
- (الكريمُ إذا وعَدَ وفى).
- (أمْهِلِ الوعدَ وعَجِّل بالوَفاء).

الوفاء يتَّخذُ أشكالاً وألواناً، وكلُّها أخَّاذة فتَّانة، فهو أشبهُ بأنواع الزُّهور، فعبيرُ كلِّ واحدةٍ منها يختلفُ عن عَبير الأُخرَيات.

أليسَ من الوفاء المحبَّب تكريمُ العلماءِ والمبدعين والمفكِّرين والمصلحين البارزين وهم أحياء؟!

أليس من الوفاء تكريم الرياضيين والفنانين الجادِّين وأصحاب الْحِرَف، والتربويين البناة الذين كان لهم بصمات واضحة في مسيرة حياة بلدانهم؟

أليس من الوفاء إحياء اكتشافات أجدادنا العلماء ونظرياتهم وتدريسها في المدارس والمعاهد والجامعات؟!!

أليس من الوفاء والبرِّ صلةُ رحم أصدقاء الآباء والأمهات ومحبيهم؟!!

يا يقظةَ الفجرِ الطَّامح، رُشِّي قطراتِ النَّدى الصَّافية على قلوب الأوفياء!

الصَّبر

الصَّبر قلادةُ الفخَارِ على صُدور أقوياءِ الشَّكيمة، وعلامةُ النُّبل في النفوس الرَّاقية، وشهادةٌ من الخالق والمخلوقين تُمنَح للصابر تقديراً لدأبه المحمود، وقوة عزيمته. الصبر محكٌّ الرجولة الحقيقية، ومعيارُ الأمومةِ الحانية والأبوَّة الدافئة، ومُرتقى العُظماء من الناس الذين ينشُدونَ المعالي، ويتجشَّمُون سلالمَ المجد، قال تعالى: {سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ} [الرعد: **13/24**].

الصَّبر نبضُ الفرح في القلوب المَكْلومة وبَلسمُها، وأنشودة الأملِ على أوتارها المتينة وشرايينها المتدفِّقة الثرَّة، وصدى الأُنْس في دهاليزِ الجروح الدَّفينة.

الصَّبر تطهيرٌ للنَّفس من شوائب المادية والدُّنيوية، وسُمُوٌّ بها نحو النَّقاء.

لولا الصَّبر ما أكبَّ عالمٌ على كِتاب، ولاسَهِرَت أمٌّ على راحةِ وليدها، ولاتكبَّد أبٌ مشقَّة البحثِ عن لقمة العيش لأبنائه الصِّغار. ولا تصبَّر قلبُ أبٍ وأمٍّ فقدا فلذةَ كبديهما، فإليك النَّملةَ المكافحةَ التي لاتفتأُ تُصارِعُ بجسمها الضَّعيف حبوبَ القمح، لتدَّخرها قوتاً لها في الشتاء الطويل، وإليك النَّحلةَ المُثابرة التي لاتنفكُّ تنقَّلُ من زهرةٍ إلى زهرة، ومن أُمْلودٍ إلى آخرَ بحثاً عن الرَّحيق.

أليسَ في دَأْبِ هؤلاء صبرٌ جميلٌ يُولِّدُ الظَّفر والنُّجْح؟!!

قال المثل العربيُّ: (مَن صَبر ظَفِر).

وقال ألفرد دو موسِّيه: (الإنسانُ دونَ صَبرٍ سِراجٌ من غير زيت)[37].

ومن روائع الصَّبر تلكَ التي تتمثَّلُ في تحمُّل أذى الناس من الأباعد والأقاربِ وربما كان من الزَّوجة والأبناء أو من الأقران والرفقاء. فالصابر كالشجرة لا تثمر إلا طيباً، وإنْ أهملتها، ولَويتَ أغصانها، وإذا رميتها بالحجارة رَمَتْكَ بالثمر، مهما جفوتَها فإنَّها لا تنفكُّ تمنحُكَ الظلَّ والجمال.

ومن صُورِ الصَّبر الجميل ذاكَ الذي يتمثَّلُ في أناة المصلحين الذين يُخالطون النَّاس على اختلاف أفهامهم وأجناسهم. فالمصلحون معرَّضون لمواجهة المعاندين والمتفيهقين والمجادلين، فهنا لابدَّ من أن يُشهرَ المصلح سلاحَ الصَّبر والحكمة، وكم كان سلاحُ الصَّبر أمضى من سلاحِ العلم، وآكدَ في تحقيق المُراد. وأَنْعِم بصبرِ أيوب الذي أَهْدى للبشريَّة جمعاء صورةً مشرقةً من صُور الصَّبر الجميل والنَّبيل المتَّشِح بِحُسن الأدب الجمِّ مع الخالق.

قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: **21/83**].

وماذا عن صبرِ يعقوب على فِراق فِلْذة كبدهِ يوسفَ عليه الصلاة والسلام، ذلك الصبر الذي أثمَر، وجلبَ معه الخير كلَّه؟

قال تعالى: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: **12/18**].

أمَّا صبرُ المربين من الآباءِ والأمَّهات والمعلمين فهو صبرٌ مُثمر وبنَّاء، ففي ساعةِ صبرٍ تتحمَّلها أم رؤوم أو أب حنون ومربٍّ مخلص مؤمن برسالته يُقابلها إكليلٌ من النجاح في نفوس الأبناء، وسيلٌ من القيم يتولَّد، ويبرعمُ في ذواتهم. فالصَّبر هنا تربيةٌ خالصة وفضيلة عظيمة ودأبٌ محمود.

الصَّبرُ كلٌّ لا يتجزَّأ، فأينما وُجِدَ، وكيفما تبدَّى فهو سامٍ ونبيل؛ كَصَبر الجار على جارِه الذي يتعمَّد إيذاءَه، والعامل على صعوبة مهنته التي تستنفدُ قواه، والفلاح على تعشيب حقله، والتَّاجر على تحرِّي المال الحلال، والموظف على مديره المتسلِّط.

أما صبرُ المبتلين والحزانى فهو مادةٌ تَعجزُ الكلمات عن وصفها، والأفهام عن الإحاطة بأسرار روعتها، والقوافي عن كشفِ كُنهها. أتحدَّث عن صبرِ المبتلين، وكُلُّنا مُبتَلون فمن نجا

من ابتلاء الصحَّة وقع في ابتلاء الذريَّة، ومن نجا من الاثنين ربما وقع في ابتلاء القَرابة. ولكنني أخاطبُ الآن المبتلين في صحَّتهم، وأولئك المبتلين في فَقْدِ أحبائهم.

أقول لهم: إنَّ ابتلاء الله لكم لهو دليلٌ صريحٌ على عُلُوِّ هممكم، وكَرَم أخلاقكم، وأصالة سجاياكم لأنَّ الابتلاءَ على قدر الإيمان بخالقِ الأكوان سبحانه وتعالى.

وإذا ما لاحَت صورة الفردوس بسحرها، وفيوض روعتها فإنَّ الألم سيتحوَّل إلى أمل والجرح إلى جدولٍ عذبٍ يترقرق بالتفاؤل والابتسام. وما أبلغ قوله تعالى في هذا المقام عندما يقول في محكم تنزيله: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: **41/35**].

أخاطِبُكم وأنا مُبتلىً بمحبَّتكم وتقديركم. أكتبُ إليكم لأحظى بابتسامةٍ واحدةٍ من الشِّفاه العامرةِ بالتَّسبيح، وبنظرةِ أملٍ من العيونِ التي طهَّرَتْها دموعُ الخَشْية، تلكُمُ العيونُ التي إذا ما ضحِكت، ورَمَقت الكونَ فإنَّ الخريفَ يتحوَّلُ إلى ربيعٍ باسم.

ومما قاله محمد بن يسير في الصَّبر[38]:

إنَّ الأمور إذا انسدَّت مسالكها ... فالصَّبر يفتح منها كلَّ ما ارتَتَجا

لا تيئسنَّ وإن طالت مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فرجا

أَخْلِق بذي الصَّبر أن يحظى بحاجته ... ومُدمنِ القرع للأبواب أن يَلِجا

ومما قاله الشعراء في الصَّبر:

الصبرُ مفتاحُ النَّجاحِ ولم نَجد ... صَعباً بغير الصَّبر يبلغُه الأمل

لأَسْتَسْهِلنَّ الصَّعبَ أو أُدْرِكَ المنى ... فما انْقادتِ الآمالُ إلا لِصابرِ

تعزَّ فإنَّ الصَّبرَ بالحُرِّ أجملُ ... وليسَ على رَيبِ الزَّمان مُعَوَّلُ

اصبرْ قليلاً وكُن بالله مُعْتصِما ... ولا تُعاجِلْ فإنَّ العَجزَ بالعَجَلِ

الصَّبر مثلُ اسْمِهِ في كلِّ نائبةٍ ... لكن عواقبَه أحلى من العَسَل

وقال أحدُ السَّلف رضوانُ الله عليهم: (حلاوةُ الظَّفر تمحو مرارة الصَّبر).

وأختِمُ حديثي بالتنويه بأسمى أنواعِ الصَّبر وأعلاها، إنه صبرُ المؤمنين المبشَّرين بالمكرمات ونيل أعلى الدرجات عند خالق الأراضين والسموات، وكل من ذكرت آنفاً إنما يندرجُ تحت سحابةِ هذه الفئة الظليلة النديَّة فطوبى وألف بُشرى للصَّابرين....

الحنان

الحنانُ يَنبوع ماءٍ في صحراءَ واسعة، وظلٌّ وارفٌ تأنَسُ إليه الروحُ الظَّمأى عندما تنالُ الرَّمضاءُ من رقَّتها وعذوبتها وقتَ الهاجرة ما تنال، وعندما تسومُ الأحاسيسَ الرقيقةَ أعاصيرُ الهجرِ العاتية، وعندما تُزَجُّ المشاعرُ في قفصٍ ضيِّق يسدُّ عليها المهاربَ، ويَكبتُ تغريدَها، ويحبسُ بوحَها.

الحنان أثرٌ جميلٌ من آثارِ الخالقِ حيث أودعهُ في صدرِ الأم لبناً خالصاً، وفي راحتَيها دفئاً، وفي قلبها واحةً من الأمان، فعندما يُذكرُ الحنان تقفِز إلى الذهنِ صورةُ الأمِّ التي أعلى الإسلام قَدْرَها، وعظَّم شأنها..

جاء رجلٌ إلى رسول الله فقال: يا رسولَ الله، من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمُّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمُّك». قال: ثمَّ من؟ قال: «ثمَّ أبوك»[39].

ومما قيل في الأمِّ التي هي يَنبوع الحنان الثَّرُّ وقمرُ الكون المضيءُ:

- شكسبير: "ليس في العالم وسادة أنعمُ من حِضْن الأم".
- لي شيبي: "الأمُّ شمعة مقدَّسة تُضيءُ ليل الحياة بتواضع ورقَّة وفائدة".
- سقراط: "لم أطمئنَّ قطُّ إلا وأنا في حجر أمي".
- نابليون بونابرت: "الأمُّ التي تهزُّ السَّريرَ بيمينها تهزُّ العالمَ بشمالها".

ومما يُستحسن ذكرُه في هذا المقام هذا الحوار المؤثِّر بين أم وولدها، إذ يعبِّر عن أرقى درجات المحبَّة والحنان والتضحية والنُّبل:

أغرى امرؤٌ يوماً غُلاماً جاهلاً	**بنُقودِه حتى ينالَ به الوَطر**
قال: اِئْتِني بفؤادِ أمِّكَ يا فتى	**ولكَ الدَّراهمُ والجواهرُ والدُّرَر**
فمضى وأَغْمَدَ خنجراً في صدرها	**والقلب أخرجَه وعادَ على الأثَر**
لكنَّهُ من فَرْطِ سرعته هوى	**فتدَحرَجَ القلبُ المضرَّجُ إذ عَثَر**
ناداه قلبُ الأم وهو معفَّرٌ	**ولدي حبيبي هل أصابَك من خطر؟**
فكأنَّ هذا الصوتَ رغمَ حُنوِّه	**غضبُ السَّماء به على الولد انْهَمر**
فاستلَّ خنجرهُ ليطعنَ نفسَه	**طعناً ليبقى عبرةً لمن اعتبر**
ناداهُ قلبُ الأمِّ: كُفَّ يداً، ولا	**تَطعَن فؤادي مرَّتين على الأثر**

الحنان بحرٌ من الحبِّ يحملُ في طيَّاتِ أمواجِهِ تباشيرَ الخصب، وفي قعرهِ يسكنُ اللؤلؤ والألماس والمرجان.

ومن رحمة الله الواسعة إيداعُ الحنانِ ليس في قلوب البشَر فحسب بل في قلوبِ البهائم أيضاً؛ إذْ تحنو على أولادِها، وتُرضعُهم اللبن، وتحرسُهم وتوفِّرُ لهم أسبابَ الحماية.

أودعَهُ الله في نُسوغ الأغصان التي تُمدُّ ثمارَها بالغذاء حتى ترتويَ وتَنضَج، وأودعه في الزهور التي تمنحُ الرحيقَ للنحل ليقدِّمه عسلاً نافعاً لبني البشَر.

الحنانُ مفتاحُ النَّفس، فإذا ما هَمَس إليها، ودغدغَ أحاسيسَها، وحرَّك أوراقَ زهورِها فإنها تسعدُ، وتستفيقُ، ثم تتوقَّد وتبتسم، فتضوعُ عطراً يملأُ الآفاق، فيداعبُ خيوطَ الشمس الذهبية تارةً، ويرتمي في أحضان النسيم تارةً أخرى، ليرسلَه هديَّة جميلةً للخمائلِ والأفنان، فتصحو البلابلُ والعصافيرُ من طيبِ الأريج، وتغرِّدُ فرحةً جَذلى فيطربُ الكونُ وتبتسمُ السُّحب البيض.

الحنانُ يتمثَّل في كلمة حقٍّ، ونُصرةِ مظلوم، ومواساةِ مُبتلى، ولمسةٍ حانية على رأس مَعوق، وهمسةِ محبَّة في أذن مجروح. الحنانُ يتمخَّض عن الحق تمخُّضَ العَسل عن الرحيق،

وتمخُّضَ النُّبلِ عن الأخلاق. الحنانُ تضحيةٌ؛ كتضحيةِ الأبِ العَطوف في سبيل الأبناء، وتفاني المعلمِ المخلص في الصفِّ من أجل التلاميذ، وتضحيةِ الأحرار ذَوْداً عن دينهم وأوطانهم.

الحنانُ يولِّدُ الأخوَّة بين الناس، لأنه إذا ما حطَّ رحالَه المباركة على ضفَّتَي قلب طيِّب، فإنه يُسخِّنُ ماء هاتين الضفَّتَين بدفئه، فيعلو نُبلهما، ليُشكِّل سحائبَ الخير التي تَهمي على الدنيا فُيوضاً من العَطاء.

الحنانُ دواءٌ لكثيرٍ من الأدواء فإنِ استُخدِم في وقته، وبقدرِ الحاجةِ إليه، نفعَ وأَجْدى، وإن استُخدِمَ بعشوائية ومن غيرِ ضوابطَ فإنه يضرُّ، فهو سلاحٌ ذو حدَّين؛ وما أكثرَ الآباء والأمهات الذين كانوا سبباً في ضياع أبنائهم لإغراقهم إياهُم بالحنان الجارف الذي غمرَ شخصياتهم فأضرَّ بها، كما يُضرُّ الماءُ النبتةَ إذا ما غمرها كلَّها؛ لأن النبتةَ تحتاجُ إلى الماءِ في أوقاتٍ محدَّدة، كما تحتاج إلى الشمسِ في أحايينَ أخرى، وفي مرَّة ثالثة قد لا تحتاج إلى هذا أو إلى ذاك، بل تحتاجُ إلى رطوبة وهواء. وهذه هي حال الإنسان.

كلُّ واحدٍ منَّا بحاجةٍ إلى الحنان، لأن حاجةَ النفوسِ إلى الحنان كحاجةِ الأرض إلى المطر، وحاجةِ الشِّفاه إلى الابتسامة، والعينِ إلى الكُحل، والأغصان إلى زقزقة العصافير، والجداول إلى همسِ النجوم.

وتأمَّلوا هذه اللمسةَ الحانية من نبيِّ الرحمةِ والهداية محمد بن عبد الله وهو يمسحُ على رؤوسِ الأيتامِ في يومِ العيد، ويتفقَّدُ الحزانى والثكالى والمجروحين.

فالحنانُ وديعةُ الله في النفوس الطيبة، ولمسةٌ نديَّةٌ من لمسات الخالق بثَّها في القُلوب الصافية، فلا تبخَلوا بها على أرحامكم وجواركم، وعلى الغُرباء من الناس والمبتلين، وعلى الأيتام الذين طارَ بريقُ الفرح من عيونهم، وتلاشى حسُّ الأمان في نُفوسهم.

قال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ} [الضحى: **93/9-10**].

ولرُبَّ همسةِ حنان واحدة فتحَتِ الآفاقَ أمامَ موهبةِ طالبٍ كامنة، ورسمت الأملَ على شفاهِ مَكروبٍ يعتصرُه الألم، ويُقِضُّ مضجعَه الحزنُ، وغيَّرت مسيرةَ إنسانٍ من دروبِ الضَّياع إلى دروبِ الحقِّ والهدى.

فيا أيها الزوجُ الكريم، إذا وَجدتَ في نفسك الحاجةَ إلى لمسةِ حنانٍ من مديركِ في العمل، أو من والدَيك، فامنَحْ

زوجَتَك تلك الهمسةَ؛ لأنَّ أفضلَ طريقةٍ للحصول على الحبِّ مبادرَتُك الآخرين بالمحبَّة. فالعطاء قيمةٌ وشجاعة وسعادة.

قال رسولُ الله : «الراحمونَ يرحمهُم الرحمن تبارك وتعالى، ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمكم مَن في السماء، الرَّحِمُ شُجنةٌ من الرَّحمن، فمَن وصَلَها وصلهُ الله، ومَن قطعَها قطعَهُ الله»[40].

هَبُوا الحنانَ للآخرين تُوهَب لكم المحبَّة، وارحموا الآخرين تُظلّكم غمامة الرِّضا العلويَّة، وبوحوا بالكلام الطيِّب، تحصدوا محبَّة الناس وخالقِ الناس، وعامِلوا الناس بخُلُقٍ حَسن يُقرِّبكم نبيُّ الرحمة والهداية إليه في جنات النعيم.

الجَمال

الجمالُ مَهوى الأفئدة، وَمحطُّ الأنظار، ومُتَعَلَّقُ المُتَأَمِّلين من العاشقين والشعراء، وهو أَثَرٌ رائِعٌ وماتِعٌ من أثر الخالق جَلَّ جلاله. إنَّهُ خَميلةُ الكونِ السَّاحرة، ونجومُ السماء الزَّاهرة، وأنهارُ الفيافي الزاخرة، وأغصانُ الشَّجر المُثمرة وَطُهرُ القلوب العامرة بالنَّقاء، والنُّفوس المُضَمَّخة بالصَّفاء، والأخوَّة المُكتَنَفَةِ بالوفاء.

وليس الجمال محصوراً على جمال ملامحِ الوجه وتناسُق القَوام، بل إن الجمالَ الآسِر ما كان في مواقف الرجال الأشاوس والنساء الماجِدات والأبناء المبرِّزين.

قال تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [غافر: **40/64**].

والجمال قد لا يَتَّفِقُ مع الحُسن في كل الأحوال؛ فَتَجِدُهُ قد تَبَدَّى في وَجه فتاة سمراء، ولَرُبَّما سَكنَ ضفائِرَ جُعْداً وأجساداً نحيلة.

رآهُ سُكانُ السَّواحل في وشوشات الشواطئ وزُرقَة الموج واعتدالِ الطَّقس، ورآه سكانُ الجبال في شُموخِ القمم والسِّباحة وسط الغيوم واختفاء الشمس خلف الأكواخ، ورآه البُداةُ في طُنُبِ الخيمة وفي سَنام الجمل وفي عُمق المدى وفي نبات الشيح وفي حِدَّة السُّيوف ومتانة التُّروس، إنَّه كالزئبق لا يستقِرُّ على حال، إذ يتحَرَّك في اللحظة التي تراه فيها ساكناً ويَسكُن في اللحظة التي تظنه فيها متحركاً.

الجمالُ له خصيصةٌ رائعةٌ فهو كالنُّور الذي إذا ما وقع على شجرةٍ خضراء بدت أكثر اخضراراً، وإذا وقع على زهرة حمراء بدَت أكثر احمراراً، فهو في ابتسامة الطفل الصَّغير، وفي

رنَّةِ تغريد العصافير غيرُ ذاك الذي في ترقرق الماء النَّمير. فتارةً يكون أصفرَ كما في وجه الشمس، وأخرى يكون أبيضَ كما في وجنَتَي القمر وأحياناً أحمر كَلَونِ القَرَنْفُل.

رمى الجمال بِدماه في وجنتي الجنة، وسَكَبَ نورَه في وجوه الحور العين، وفَجَّرَ ينابيعَه في صدر الأم كوثراً، وفي حضنها حناناً، وفي راحتيها دفئاً.

حطَّ رحاله في زهر الطفولة ففاحت براءةً وأملاً ورقَّةً. أودَعَ تَموُّجه في خصلات شعر المحبوبة، وخَضَّبَ ضفائرها بِحنَّائه، ولَوَّنَ حروف كلماتها بِجاذبية عجيبة فَراحت الحروف تجري على اللسان بانسياب كما يترقرق الماء النَّمير الزلال على اللجين.

هو النُّقطة التي تلتقي فيها الابتسامة مع انشراح الصَّدر، والتَّسامح مع صفاء السَّريرة والصِّدق مع الشَّجاعة، والقُوَّة مع الرَّحمة، والعفو مع المقدرة.

هو اللحظة التي يلتقي فيها فمُ النحلة المكافحة مع رحيق الزَّهر، ومنقارُ العصفورة المُثقل بالطعام مع أفواه الفراخ الصغيرة في عُش تتجاذبه الريح يمنةً ويسرة.

هو اللَّحظة الرائعة التي يَنطِقُ فيها اللسان ويقول: يا الله! لِشدَّة الدهشة التي تَكتَنِفُ الروح.

يقول المثل التركي:(ينبغي تمجيد الخالق عند رؤية الجمال).

والجمال نوعان، وكلاهما معنوي؛ فأما الأولُ فذاك الذي ترى آثارَه العين، ويشَمُّه الأنف، ويتذوَّقه اللسان

ويلمَسه البَنان. وأما الثاني والأهم فإنَّه لا يُرى ولا يُلمَس وإنَّما يتَبدَّى في حياءِ العذراوات وعِفَّة القوارير وشرف الرجال وشجاعة حملة المبادئ ورعاة المثل وإخلاص المخلصين وبراءة الأطفال ورحمة العجماوات على صغارها. الجمال في أحلى حلله يَتجلَّى في الأمان الذي يرشُفه الإنسان كأساً تنسَكِبُ في شرايينه لتتروَّى غدرانُ نفسه فَتزهرَ الأقاحي، وبراعم الثمر فيها، وتنشُرَ عِطرَ الإنسانية الفواح الذي يُشذِّي الآخرين، ويَهمي عليهم سحائب نديَّةً من فيوض الأمان، ومن طلِّ الفرح، ومن نسيم الروعة، ومن شذا عبير الورد.

إنَّ الروح التي ترتوي بالأمان قادرة على إعطائه، وإنَّ الأرض التي تتشَرَّب الماء تُفَجِّرُ الينابيع، وتُسيلُ الجداول، وإن النَّفس كالمرآة لا تعكِسُ إلا الصورةَ التي فيها؛ فإنها إذا احتوت

على الحب والعدل والأمان فإنَّها تمنح الآخرين الحب والعدل والأمان.

«في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلاً، إذ تُلقي النفس عليه من ألوانها، فتنقلب الدار الصغيرة قصراً لأنها في سعَة النفس لا في مساحتها هي، وتعرفُ لنورِ النهار عذوبة كعذوبة الماء العَذب على الظَّمأ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهر أقيمَ للحور العين في السماوات، ويبدو الفجر بألوانه وأنواره ونسماته كأنَّه جنَّة سابحة في الهواء»[41].

لو لم يكن في هذا الكون جمالٌ لعميت كثيرٌ من العيون، ولانقرض آلاف الكتاب والشعراء، ولما سمعتَ تغريد العصافير ولا شدو البلابل. ولولا الزهر الذي يُهدي الرحيق أنَّى للنَّحل أن يُنتجَ العسل؟!!

الجمالُ كثيراً ما يُولِّده الألم والحرمان والإصرار فَنرى كثيراً من الشبان العصاميين قد نالوا أعلى الشَّهادات، وقَدَّموا أروع المخترعات، واكتشفوا علاجَ المُستعصي من الأمراض، وأجرى الله على ألسنتهم أجمل الكَلم وأدقَّ التعابير. فأخبارُ هؤلاء أليست جمالاً؟ وتجدنا عندما نسمعها تُنعشنا وتَبعثُ الأمل في حنايانا، وتُنَمي قيماً نبيلة في ذواتنا.

هؤلاء يصنعون الجمال، ويحوكون روعته، ويقدمونه للناس قيمة جميلة تحمِلهم على التأمل والاستمتاع.

فَإنَّك لو تَأمَّلت مَنظَرَ البُلبُل الذي يشدو في سماء الخميلة الغَنَّاء تعبيراً عن سعادته بالزهور ذات الرُّواء الجميل التي تَنشُرُ العَرف الجَذَّاب المُنعِش في حنايا الأيك الرَّيان لَعَرفتَ أنَّ هذا البُلبل يَأنَسُ للجمال، ويستَريحُ للمناظر الجميلة، وَلو سَألت الأفنان والأقحوان والفراش والغِزلانَ عن معنى شدو البلابل وتغريد العصافير وَقُدِّرَ لها أن تُجيب لَكَشَفَت عن أسرارٍ خفيةٍ من معاني الجمال، لأَنَّ الكائن الحيَّ الذي يَسجُدُ لله، وَيُسَبِّح الله لا شَكَّ أنَّه يَتفاعَلُ مع آثارِ بَديعِ صُنعِ الله. وإنَّ الزهور التي تتفتَّحُ، وتفوح في الليل، أليست تضوع لتحقيق معادلة التوازن في الكون؟

قال هيجل:" الجمال الطبيعي انعكاس للروح، ولا يكون الشيءُ جميلاً إلا بقدر ما يصدر عن الروح"[42].

ورحم الله المتنبي الذي قال:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له   **إذا لم يكن في فعله والخلائقِ**

وقال عمرو بن معديكرب:

ليس الجمال بمئزر **فاعلم وإن ردِّيت بردا**

إنَّ الجمال معادن **ومناقب أورثْنَ مجدا**

والنفوسُ التي تُفيضُ التفاؤلَ مِن جَنَباتِها، وبريقَ الأمل مِن أحداقها ودِلالاتِ المحبة من عباراتها أقدر على تبطُّنِ مغازي الجمالِ.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

أيها ذا الشاكي وما بك داءٌ **كُن جميلاً ترَ الوجودَ جميلا**

الجمالُ الذي يدلُّ على الخير فذو قيمة عظيمة، شَأنه في ذلك شأنُ الرحمة والعدالة والصدق لأنَّه سببٌ لِتعظيم الخالق، وأداةٌ دالَّةٌ على عظمته وقدرته، ومن ثم عبادته التي هي أسمى الفضائل، وأنضرُ الخمائل، وأندى الشَّمائل، لأنها تَهدي إلى سواء السبيل الذي يوصِلنا إلى الجنَّة، تلكم الجائزة الثمينة التي تُداعِبُ أخيلة المؤمنين، وتُغازِل أحلام الصديقين والصالحين.

هي الجنَّة التي قال عنها رسول الله : «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فَأنعمْ بالجمال من فضيلة! وأكرم به من وسيلة! ويا حبَّذا مراميه الطيبة! ومغازيه المُعطَّرة النبيلة!

ومما قيل في هذا المقام قولٌ لأحدِ المشاهير: (قد يفتقر الجمال إلى الفضيلة، أما الفضيلة فلا تفتقر إلى الجمال أبداً)[43].

الجمال قيمة راقية وليس سِلعة تُباع وتشرى. الجمال وَصفة ربانية عظيمة يجدُها المتأمل المتبصِّر في معظم الأشياء التي من حوله، هذه الوصفة تحمل النفس على التأمُّل والإقرار بعظمة الخالق عز وجل، ومن ثم نيل السعادة التي ينشدها القاصي والداني.

استراحة القارئ

الأصمعيُّ والخياط:

قال الأصمعي: كنت أسيرُ في أحد شوارع الكوفة فإذا أعرابيٌّ يحمل قطعةً من القُماش، فسألني أن أدلَّه على خيَّاط قريب، فأخذته إلى خياط يدعى زيداً؛ وكان أعور، فقال الخياط: والله لأخيطنَّه خياطة لا تدري أقباءً هو أم دراج، فقال الأعرابي: والله لأقولن فيك شعراً لا تدري أمدحٌ هو أم هجاء.

فلما أتمَّ الخياطُ الثوب أخذه الأعرابي ولم يعرف هل يلبَسه على أنه قَباء أم دراج.

فقال الأعرابي منشداً:

خاطَ لي زيدٌ قَباءْ	**ليت عينيه سواء**
فاسألوا الناس جميعا	**أمديح أم هجاء؟!!**

المتَّهم والوالي:

جيءَ بأعرابيٍّ إلى أحد الولاة لمحاكمته على جريمةٍ اتُّهم بارتكابها، فلما دخل على الوالي في مجلسه أخرجَ كتاباً ضمَّنه قصَّته وقدمه للوالي، ثمَّ قال: هاؤم اقرؤوا كتابيه، فقال الوالي: إنَّما يُقال هذا يوم القيامة.

فقال الأعرابي: هذا والله شرٌّ من يوم القيامة، ففي يوم القيامة يُؤتى بحسناتي وسيئاتي، أما أنتم فقد جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي.

الحجاج وليلى الأخيلية:

قال الحجاج عندما مدَحته ليلى الأخيلية: أعطوها ألفاً من النَّعم.

فقال الخازن: إبلٌ أم غنم؟

فقالت ليلى للخازن: ويحك، الأميرُ أعزُّ من أن يُعطيَ الغنمَ، فأعطوها إبلاً.

فلما خرجَت قالَ الحجاج: قاتلها الله، والله لم أرد إلا الغنم.

أبو جوالق:

ذهبَ أبو جُوالق ليشتريَ حِماراً فسأله صديقُه: إلى أين أنت ذاهبٌ؟

قالَ أبو جوالق: أريدُ أن أشتريَ حِماراً، فقال صديقُه: حسناً، ولكن قُلْ: إن شاءَ الله يا رجُل.

فقال أبو جُوالق: ليس هذا موضعَ (إن شاء الله)، الدَّراهمُ في كُمِّي والحمارُ في السُّوقِ، فسُرِقت دَراهِمُهُ، فرآه صديقُه حَزِيناً فقال له: ما صَنَعتَ؟ هل اشتريتَ الحمارَ؟

فقالَ أبو جوالق: سُرِقَت الدَّراهِمُ إن شاءَ الله.

الملك والشاعر:

ذهب رجلٌ إلى أحد الملوك، وأنشده شعراً.

قالَ الملكُ: لقد أحسنتَ. اطلُب ما تَشاء.

قالَ الشاعرُ: هل ستعطيني حقاً؟!!

قال الملكُ: أجَل.

قال الشاعر: أريدُ أن تعطيَني دنانيرَ بمقدارِ الرقم الذي أذكرُه في الآيات القرآنية.

قال الملك: لكَ ذلك.

فقالَ الشاعرُ: قال الله تعالى: {إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} [النحل: **16/22**].

فأعطاهُ الملكُ ديناراً.

قالَ الشاعرُ: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} [التوبة: **9/40**].

فأعطاه الملكُ دينارين.

قال الشاعر: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [المائدة: **5/73**].

فأعطاه الملكُ ثلاثةَ دنانير.

قال الشاعر: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} [البقرة: **2/260**].

فأعطاه الملكُ أربعةَ دنانير.

قال الشاعرُ: {وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ} [المجادلة: **58/7**].

فأعطاه الملكُ خمسةَ دنانير وستة دنانير أخرى.

قال الشاعر: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [الطلاق: **65/12**].

فأعطاه الملكُ سبعةَ دنانير.

قال الشاعر: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: **69/17**].

فأعطاه الملك ثمانية دنانير.

قال الشاعر: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ} [النمل: **27/48**].

فأعطاه الملكُ تسعة دنانير.

قال الشاعر: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: **2/196**].

فأعطاه الملك عشرةَ دنانير.

قال الشاعرُ: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} [يوسف: **12/4**].

فأعطاه الملكُ أحد عشر ديناراً.

قال الشاعر: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ} [التوبة: **9/36**].

فأعطاه الملكُ اثنا عشر ديناراً.

ثم قال الملك: أعطوه ضعفَ ما جمَعَ واطردوه.

قال الشاعر: لماذا يا مولاي؟

قال الملكُ: أخاف أن تقولَ: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: **37/147**].

الرشيد وأخته علية:

كانت علية بنت المهدي تحب أن تراسلَ بالأشعار من تختصُّه، فاختصَّت خادماً يقال له (طل) من خدَمِ الرشيد، فكانت تراسلُه بالشعر. ذاتَ يومٍ حدَّثته علية بعد انقطاع طويل، وقالت في ذلك:

قد كان ما كلفته زمنا	**يا طلُّ من وَجدٍ بكم يَشفي**
حتى أتيتكُ زائراً عجلا	**أمشي على حَتْف إلى حتف**

فحلَف عليها الرشيد ألا تكلم طلاً ولا تسمِّيه باسمه فضَمِنَت له ذلك. واستمع إليها يوماً وهي تقرأ من آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ} [البقرة: **2/265**] ، وبدل أن تقول طل قالت: الذي نهانا عنه أمير المؤمنين، فدخل الرشيد وقبَّل رأس أخته. وقال لها: وهبتُ لك طلاً، ولا أمنعُك بعد هذا من شيء تريدينه.

المأمون والنبي المبعوث:

تعذَّر على رجل لقاء المأمون في ظلامة، فصاح على بابه قائلاً: " أنا أحمدُ النبيَّ المبعوث". فضجَّ من سَمِعه وأدخلوه إلى المأمون، فذكر ظلامَته، فقال له المأمون: ما تقول فيما أنت متهم به؟

قال الرجل: ما هو؟

قال المأمون: ادِّعاؤك النبوة.

قال الأعرابي: معاذ الله! إنما قلت: أنا أحمدُ النبيَّ المبعوثَ. أفأنت ممن لا يحمده يا أمير المؤمنين؟!!

فاستظرفه المأمون وأمر بإنصافه.

السلطان والجارية السوداء:

حُكي أنه كان لأحدِ السلاطين جاريةٌ سوداءُ قبيحة المنظر، فنثر يوماً دنانير بين الجواري فصارت الجواري يلتقِطن الدنانير وتلك الجارية واقفةٌ تنظر إلى وجهِ الرشيد، فقال لها: ألا تلتقطين الدنانير؟

فقالت: إن مطلوبهنَّ الدنانير ومطلوبي صاحب الدنانير.

فأعجبته فقرَّبها وأثنى عليها خيراً، فقام حسنُ كلامها مقام الجمال.

الفتى وهشام بن عمرو:

سأل هشام بن عمرو فتى أعرابياً عن عمُره قائلاً: كم تعدُّ يا فتى؟

الفتى: أعدُّ من واحدٍ إلى ألف وأكثر.

هشام: لم أُرد هذا، وإنما أردت: كم لكَ من السنين؟

الفتى: السنون كلها لله عز وجل، وليس لي منها شيء.

هشام: قصدت أسألك ما سنُّك؟

الفتى: سني من عظم.

هشام: يا بني إنما قصدت ابنُ كم أنت؟

الفتى: ابن اثنينِ طبعاً أم وأب.

هشام: يا إلهي! إنما أردت أن أسألَك: كم عُمرك؟

الفتى: الأعمارُ بيد الله، لا يعلمُها إلا هو.

هشام: ويلَك يا فتى. لقد حيَّرتني... ماذا أقول؟

الفتى: قل: كم مضى من عمرك؟

الحجَّاج والغلامان:

اشترى الحجاجُ غلامين أحدهما أسود والآخرُ أبيض، فقال لهما: أريد أن يمدحَ كلٌّ واحدٍ منكُما نفسَه، ويهجو الآخر.

فقالَ الأسودُ منشداً:

ألَم ترَ أنَّ المسكَ لا شيءَ مثله	**وأنَّ بياضَ اللِّفت حملٌ بدرهم**
وأنَّ سوادَ العينِ لا شكَّ نورُها	**وأنَّ بياضَ العينِ لا شيءَ فاعلم**

ثمَّ أنشدَ الأبيضُ:

ألم ترَ أنَّ البدر لا شيءَ مثله	**وأنَّ سوادَ الفحمِ حملٌ بدرهم**
وأنَّ رجالَ الله بيضٌ وجوههم	**ولا شكَّ أنَّ السُّودَ أهلُ جهنَّم**

النَّحويُّ والبائعُ:

دخلَ أحدُ النحويين السوقَ ليشتريَ حماراً فقالَ للبائع: أريدُ حماراً لا بالصغير المحتَقر، ولا بالكبيرِ المشتَهر، إن أقلَلت علفَه صبر، وإن أكثرتَ عَلَفَه شكر، لا يدخلُ تحتَ البواري، ولا يزاحمُ بي السَّواري، إذا خلا في الطريق تدفَّق، وإذا أكثرَ الزحام ترفَّق، فقالَ لهُ البائع: دَعني، إذا مسخَ الله القاضي حماراً بعته لك.

الرجلُ وعمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه :

خرج عمرُ بن الخطاب مع جماعة من أصحابه إلى البادية للصيد والقَنص فلقِيهم أعرابيٌّ ممتطيًا جواداً أشهبَ فأوقفه عمر وقال له: ما اسمك؟

قال الرجل: اسمي شهاب.

عمر: أبو من؟

الرجل: أبو جَمرة.

عمر: ممَّن أنت؟

الرجل: من بني حُرقة ثم من بني ضِرام.

عمر: أين مسكنُك؟

الرجل: في ذاتِ لَظى.

عمر: ما اسمُ جَوادك؟

الرجل: سعير.

عندئذٍ قالَ عمر رضي الله عنه : أدرِك أهلَك قبل أن يحترِقوا.

شقيق حاتم وأمه:

حُكي أنه لما ماتَ حاتمٌ الطائيُّ تشبَّه به أخوه، فقالت له أمُّه: يا بنيَّ أتريدُ أن تحذو حذو أخيك؟ فإنك لن تبلغ ما بلغه فلا تتعبنَّ فيما لا تناله، فقال: وما يمنعُني وقد كانَ شقيقي وأخي من أبي وأمي؟ فقالت: إني لما ولدته كنتُ كلما أرضعته أبى أن يرضَع حتى آتيه بمن يشاركُه فيرضعُ الثَّديَ الآخر، وكنتُ إذا أرضعتُكَ ودخلَ آخرُ بكيتَ حتى يخرج..

المعتصم والولد الذكي:

زارَ المعتصمُ أحدَ رجالهِ في دارهِ، فاستقبله صبيٌّ صغيرٌ لم يُجاوز العاشرة من عمره، وكان استقبالُ الصبيِّ لائقاً وينمُّ على ذكاء وأدب ونباهة. أرادَ المعتصمُ أن يمتحنَ الصبيَّ فقال له: داري أحسنُ من دار أبيك، فقال الصبيُّ: في هذه اللحظة دارُ أبي أحسن أيها الخليفة.

فقال الخليفةُ: ولِمَ دارُ أبيكَ أحسن؟

أجاب الصبيُّ: لأنك فيها يا أمير المؤمنين.

أعجبَ الخليفةُ بجواب الصبي، ونزع خاتمه من إصبعه وقدَّمه هدية للصبي، وقال: أرأيت ما هو أجمل من هذا الخاتم؟

أجاب الصبي: نعم يا أمير المؤمنين.

قال الخليفة: وماذا رأيت؟

قال الصبي: اليدُ التي هو فيها.

فازداد سرور الخليفة وأنشد يقول:

نِعَمُ الإله على العباد كثيرة **وأجلُّهن نجابةُ الأولاد**

هشام بن عبد الملك والغلام:

جاء قومٌ من الباديةِ إلى الخليفةِ هشام، وفيهم غلامٌ اسمُه درواسُ بن حبيب، فقال هشام غاضباً: ما يشاءُ أحد أن يدخل عليَّ حتى دخل الصِّبيان. فلما سمِع الغلام ذلك وثبَ حتَّى قعَد بين يدي هشام فقال:

يا أمير المؤمنين إنَّ للكلام نشراً طيباً، وإنَّه لا يُعرف ما في طيِّه إلا بنَشره، فإن أذِنت لي أن أنشرَه نشَرته.

فقال هشام معجباً: انشره أيها الغلام.

فقال الغلامُ: إنه أصابَتنا سنون ثلاث؛ سنةٌ أذابَت الشحم، وسنة أكَلت اللحم، وسنة أنقَقت العظم، وفي أيديكم فضولُ أموال، فإن كانت لله ففرِّقوها في عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها عليهم فإن الله يجزي المتصدِّقين.

فقال هشام: ما تركَ لنا الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمئة ألف دينار، وللغلام بمئة ألف درهم، فردَّها الغلام إلى عامَّة الناس.

عبد الملك بن مروان:

اجتمع الشعراء عند عبد الملك بن مروان فقال لهم: ما لكم تشبِّهوننا بالأسد والأسدُ أبخر (أي رائحة فمه كريهة)، وتشبهونَنا بالبحر والبحر ملحٌ أجاج، وتشبهوننا بالجبَل والجبل أوعر؟ ألا قلتم كما قال أيمن بن خزيم في بني هاشم:

نهاركُمُ مكابدةٌ وصومٌ **وليلكم صلاةٌ واقتراءُ**

وبينكم وبينـهم الـهواء؟	أأجعلكم وأقواماً سواءً
لأعينـهم وأرؤسـهم سواءُ	وهم أرض لأرجلكم وأنتم

العروسان:

دخل عمرانُ بن حطَّان على امرأتِه يوم عرسه، وكانَ قبيح الشكل دميماً قصيراً وكانت امرأتُه حسناءَ فلما نظر إليها ازدادَت في عينه جمالاً وحُسناً فلم يتمالَك أن يديمَ النَّظر إليها فقالت: ما شأنك؟

قال: الحمد لله الذي رزقني زوجةً جميلة.

فقالت: أبشِر فإني وإيَّاك في الجنة.

قال: ومن أين علمتِ ذلك؟

قالت: لأنَّك أعطيتَ مثلي فشَكرت، وأنا ابتُليتُ بمثلك فصَبرت والصابرُ والشاكرُ في الجنة.

أبو جعفر المنصور والرجل الحاذق:

حدَّثَ الناسُ أبا جعفر المنصور عن رجل يستطيعُ أن يصوِّب الإبرة إلى ثقب إبرة أخرى كما يصوِّب السهمَ إلى الهدف.

فعجب أبو جعفر من ذلكَ، وطلبَ الرجل الحاذق إليه، وفعلاً تمكَّن الرجلُ من إصابة ثَقب الإبرة، عندئذ أمر له أبو جعفر بمئة درهم وأن يُجلدَ مئة جلدة جزاءَ تضييعه للوقت فيما لا ينفع.

هشام بن عبد الملك وسالم:

لقي هشام بن عبد الملك سالماً بن عبد الله بن عمر بن الخطاب في جوف الكعبة فقال له: يا سالم سَلني حاجة.

فقال سالم: إني لأستحي من الله أن أسألَ في بيت الله غير الله. فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن قد خرجت فسَلني حاجة، فقال له سالم: من حوائِج الدنيا أم من حوائج

الآخرة؟ فقال هشام: بل من حوائج الدنيا، فقال له سالم: ما سألت من يملكُها فكيف أسألُ من لا يملكها.

كثير عزة:

وما كنت أدري قبل عزة ما البُكا ... ولا موجبات الحزن حتى تولَّت

فيا عجباً للقلب كيفَ اعترافه ... وللنفس لما وطِّنت كيف ذلَّت

وصرت كذي رِجْلَينِ رِجْلٌ صحيحةٌ ... ورِجْلٌ رمى فيها الزمانُ فشُلَّتِ

لكالمرتجي ظلَّ الغمامةِ كلَّما ... تبوَّأ منها للمقيل اضمحلَّتِ

أبو نواس والبخيل:

قالَ أبو نواس في أحدِ البخلاء وكان اسمه الفضل:

رأيت الفضلَ مكتئبا ... يناغي الخبز والسَّمَكا

فقطَّبَ حين أبصرني ... وأنكسَ رأسه وبكى

فلمَّا أن حلفتُ له ... بأني صائم ضحكا

المحبَّة

المحبة زهرةُ الحياةِ الفوَّاحة، ومفتاحُ سعادةِ النفوس، ونسمةُ الهواء النَّديَّة التي تحرِّك نبضَ القلوبِ فَتضوع عبيراً ينشرُ الفرح والسرور أنَّى حلَّ.

المحبَّة همسةُ الحنانِ التي تنتظمُ عِقْدَ القلوب، ونفحةُ الرحمةِ التي تسكنُ الأفئدة، وتنثرُ الطلَّ على صفحاتِ شغافها كما ينثُرُ البحرُ ابتساماتهِ عند الصباح فترتمي في حضنِ الشمس، وتذوبُ من دفئِها، فترسِلها الشمسُ من جديدٍ عبرَ خيوطِ سناها قطراتٍ من الندى تبعث الأمل في حياة الزهر والأقحوان.

المحبَّة كلمةٌ دافئة تنبعثُ من قلبِ صادق، وتَخرُجُ بتَؤُدة وانسياب لِتَقَعَ في سويداء فؤادِ المستمعِ، ومن ثم تَنتشرُ، وتتمدَّدُ كما يَتمدَّدُ الظلُّ على حِمى الشَّمس.

الحبُّ فكرةٌ تعجِزُ عن فتْحِ أسرارها عقولُ المبدعين، وصورةٌ تعجز عن وصْفِها أبجديةُ فُحولِ الشعراء والكتَّاب، فهو أشبهُ باللحظة التي تشرق فيها حروف الكلمات من روعة معانيها.

المحبَّة قد تكون مواساة لمكروب يتوجَّعُ، ومؤانسةً لمظلوم يتألَّم. ويبلغُ الحبُّ الذروة عندما ينفذُ إلى سويداءِ القلوب فيحوِّلُ الدمَ إلى عطرٍ يضوعُ، والعروقَ إلى أنهارٍ تترقرقُ، والنبضَ إلى ينبوعٍ يتدفقُ في حنايا الجسم، وتصبحُ حركةُ الماءِ في داخلِ الجسمِ أشبهَ بحركةِ البحرِ ليصبحَ الجسدُ كغيمةٍ تمتلئُ ماءً، وتتشَبَّع، لتسكبَ وَدْقها على الأقاحي والروابي تارةً على شكل كلماتٍ تفتر من الثغرِ فَتُسعِدُ السامعين، وأخرى على شكل لمساتٍ حانيات تَجبُر خواطرَ المجروحين.

إنهُ البلسمُ الذي يتسلَّلُ إلى النفوس ليهبَ السَّكينة من غير دواء، ويرفعَ قبضةَ القلق من غير عناء. الحب هو السرُّ الذي يحرِّكُ في النفسِ جُودَها وفي الطِّباعِ رِقَّتَها وفي الكلماتِ روعةَ صُورِها ومعانيها. هو القوَّة التي تجذبُ المشاعرَ كما يجذبُ المغناطيسُ برادةَ الحديد، وكما يجذب الرحيقُ أسرابَ النحل.

الحُب رسالة الخالق عز وجل إلى بني الإنسان، ينعمون بما يحمله من دلالات عظيمة وفوائد عديدة.

يقول بتهوفن: (القلب المحب يسع الدنيا)[44].

ويقول جون ميلتون: (المحبة المتبادلة تاج السعادة)[45].

ولشدَّة أثر الحب في حياة البشر فإنه حازَ أجمل التعابير والصور في اللغة، وحاز أجمل القَرائن في الطبيعة، فأخذَ من الرياضِ شذا العبيرِ ولون الزهر، وأخذَ من البحر روعةَ الموج وجمالَ اللقاء بينه وبين الشمس وقتَ الأصيل عندما تبدو الشمس كطفلٍ يرتمي في حضن أمه، وأخذَ الحبُّ من السماء جمالَ القمر، وبريقَ النجوم، وسعة الأفق.

الحبُّ مادة السعادة التي تنسكبُ في أوردتنا فتدفئُ الدمَ فتفيضُ المشاعر بسماتٍ وأفعال طيبة.

وإنَّ هذه المشاعر إنما تتبدَّى في بريق العيون وانشراح الصدور ورحابَة النفوس وانسياب التراحيب والكلمات وصدق الابتسامات.

وماذا أيضاً؟ فهو لونُ الورود والزَّهر، ووجهُ القمر، وصمت الروابي، وطُهر السَّحر وعطاء الشَّجر، وترقرق النَّهر. فالمحبُّ يعرف حبيبَه ولو لم يُفصِح له كما تعرف الفراشات خفايا الخمائل.

ورد تعريفُ الحب في المعجم الوسيط على أنه: "الوداد"، وعند الفلاسفة "الحبُّ هو ميلٌ إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة. أو الجذابة أو النافعة"[46].

وهو – كما ورد عند ابن قيم الجوزية في روضة المحبين ونزهة المشتاقين –: (الحب إناءٌ واسعٌ يوضَعُ فيه الشيءُ فيمتلئُ به بحيثُ لا يسَع غيره، وكذلك قلبُ المحبِّ ليسَ فيه سعةٌ لغيرِ محبوبه)[47].

ورحم الله الشاعر الذي قال:

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهم — وأسألُ عنهم من لقيتُ ومن معي

وتطلبُهم عيني وهم في سوادها — ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وذلك كُثَيِّر عزَّة الذي يُعبِّر عن انقياد قلبه وانهمار أدمعه واعتراف نفسه بعد أن عَلِقَ قلبه بِحب عزَّة:

وما كنتُ أدري قبل عزَّة ما البكا — ولا موجباتِ الحزن حتى تولَّت

فيا عجباً للقلب كيف اعترافُه — وللنَّفس لما وُطِّنت كيف ذَلَّت

لكالمرتجي ظلَّ الغمامة كلما — تبوَّأ منها للمقيل اضمحلَّت

وفي مقامٍ آخر قال كثيِّرٌ:

وإني لَتعروني لذكراكِ رعشةٌ — كما انتفض العصفور بلَّلَه القَطرُ

وقال مجنون ليلى معبِّراً عن شدَّة حبِّه:

أليسَ وَعَدتني يا قلبُ أنِّي — إذا ما تُبْتُ عن ليلى تتوبُ؟

فها أنا تائبٌ عن حُبِّ ليلى — فما لكَ كلَّما ذُكرت تَذوبُ؟

وقال ابن الدُّمينة:

وقد زعموا أنَّ المحبَّ إذا دَنا — يملُّ وأنَّ النَّأي يشفي من الوَجْدِ

بكلٍّ تداوَينا فَلَم يُشْفَ ما بِنا — على أنَّ قُربَ الدار خيرٌ من البُعدِ

أما ابن حزم فيعرِّفُ الحبَّ في كتابه طوق الحمامة على أنَّه معاناةٌ روحانية تجلُّ عن الوصف فيقول: " والذي أذهبُ إليه أنه اتصالٌ بين أجزاءِ النفوس المقسومةِ في هذه الخليقة في أصلِ عنصرها الرفيع"[48].

فالحبُّ أشدُّ الأمورِ الإنسانيةِ تعقيداً. الحبُّ سعيٌ نحو الكمال فأنا أحبُّ ما يكمِّلني ويتمِّمُني، وهو سعيٌ إلى امتلاك ما ليس ممتلكاً.

وقد قيل مرةً لأبقراط: إنَّ أحداً من الأوغاد يُحبُّك فاغتمَّ، وقال: " لو لم يكن بيني وبينه نقاط التقاءٍ لما أحبني".

أما أفلاطون فإنه يُنكرُ أن يكون الحسُّ الظاهرُ باعثاً للحسِّ الحقيقي اليقيني المعقول. وأن كل حبٍّ يقتصرُ على العالم المحسوس فإنه في درجاته الدنيا. فكما أنَّ الجسمَ الفيزيائي يحتاجُ إلى طعامٍ وشراب ليبقى قوياً، فإنَّ نظيره الروحاني يحتاج إلى غذاء من نوعٍ مختلف؛ ألا وهو الحب الذي يمنحه للآخرين وذاك الذي يمنحه الآخرون له.

إنَّ تبادلَ المحبة لهو دليلٌ كبير على صفاءِ النفوس، ونقاءِ السرائر، ونُضج الأذهان. ولا يمكن أن يكون الحبُّ صادقاً إلا إذا كان متَبادَلاً. وإذا ما عشَّش الحبُّ في النفسِ، وسكنَ في الجوارح، واستقرَّ في سويداء القلب فإنَّ الجوارحَ لابدَّ أن تقومَ بمهامها على أكمل وجه، ويتجلى ذلك في العمل وفي العلاقة مع الأصحاب والأبناء، ومن ثم مع جميع المجتمع.

وإذا ما غابت شمسُ الحبِّ عن خميلةِ قلبٍ، وروضةِ نفسٍ فإن قلبه سيتحول إلى حطامِ جذوعٍ وبقايا أوراق يُتلفُ بعضُها بعضاً حتى تندرسَ وتتلاشى لتصبحَ أثراً بعدَ عين.

إنَّ غيابَ الحبِّ الحقيقيِّ عن القلبِ يعني غيابَ دافعِ النَّفع، وخواءَ خليَّةِ العطاءِ في جسم الإنسان، والمشكلةُ الكبرى تكمُنُ عندما يكونُ فاقدُ الحبِّ ربَّ أسرة أو معلماً أو قائدًا لجماعة؛ لأنَّه عندئذٍ يَنفث من غبار جموده ورياح جفافه على أغصان الآخرين الوارفة ولربما فتك ببعضها أو كلِّها.

فأثرُ الحبِّ على النفس كأثرِ المطر على الزرع، وأثر التربية الطيبة على الطفل الصغير، وأثر القائد الصالح على الجنود. المحبَّة الساميةُ ينبغي أن تكونَ لله سبحانه وتعالى لأنهُ الخالق

الرازق والمصور والمنعم، وتكون من بعده لرسوله محمد الذي قال في الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلُّكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»[49].

سُئِلَ رسول الله : من أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم لله». قالوا: ليسَ عن هذا نسألُك، قال: «فأكرمُ الناس يوسفُ نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليسَ عن هذا نسألُك، قال: «فعن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادنٌ، خيارهُم في الجاهلية خيارهُم في الإسلام، إذا فقهوا»[50].

وقال الشافعي رحمه الله:

ومن الشقاوة أن تحبَّ	**ومن تحبُّ يحبُّ غيرك**
أو أن تريد الخير للإنسان	**وهو يريد ضرَّك**

ومن قصص الأدب العالمي عن الحب أقدّم لكم هذه القصة المؤثرة بعنوان:

«في إحدى البلاد البعيدة كان يعيش رجلٌ وابنتُه- بنت الأعوام الثلاثة - على مقربة من إحدى المدن. ذات يوم عاد الأب من العمل فوجد ابنتَه قد عبثَت بوَرق التغليف الذي كان يحتفِظ به في دُرج مكتبه فعاقبَها الأبُ من غير أن يسألها عن سبب عبثها بورق التغليف. في اليوم التالي جاءت الابنةُ الصغيرةُ حاملةً بين يديها صندوقاً صغيراً مغلَّفاً بورق ذهبي لامع جميل. كانت تمشي بخطوات حذِرة، وتنظر إلى أبيها مع كل خطوة بعيون مليئة بالطُّهر والحنان والرقَّة وقليل من الخوف. كان منظر الصندوق رائعاً جداً. قالت الصغيرةُ: لقد أعددت لك هذه الهدية يا أبي.

شعر الأبُ بحرجٍ كبير، إذ تذكَّر أنه عاقب ابنتَه لأنه ظنَّ- في ذلك الوقت- أنها أتلَفت ورق التغليف بلا سبب.

فتح الأب الصندوق فوجده فارغاً، فقال لابنته، وقد ملأ الغضبُ وجهَه من جديد: أتَسخرين مني أيتها المشاكسة؟

قالت البنت وعيناها مغرورقتان بالدُّموع: ولكن هديتي ليست فارغة يا أبي، لقد ملأتها بكثير من القبلات لك.

فوجئ الأب بكلام ابنته الصغيرة، واحتضنها، ثم قالَ: اعذريني يا بنتي الحبيبة، أنت رائعة حقاً، وهديتك رائعةٌ كذلك. بعد ذلك بأيام قليلة توفيت البنت الصغيرة. حزن الأب على ابنته كثيراً.

احتفظ الأبُ بالصندوق في خزانته الخاصة، وبات يضعُه بالقرب من وسادته كلما أراد النوم، وكان كلما شعر بالضيق فتحَ الصندوق، وأخذ شيئاً من تلك القبلات التي وضعتها له ابنته الحبيبة».

ولا يخفى على الحصفاء النبلاء أن المحبة جسرٌ لا يصل الماء باليابسة فحسب، ولكنه يصل القلوب بالقلوب والنفوس بالنفوس، فما أجمل أن نُشيدَ جسور المحبة بيننا!

ولا يخفى على النبلاء الأنقياء أن المحبَّة تنشر السعادة والراحة والطمأنينة في أرجاء النفس كما ينشر العطر الأريجَ الذكي في الأرجاء.

فيا أيها الأحبة هبُوا محبَّتكم للناس بالكلمةِ الطيبة والابتسامة الصادقة، وامنَحوها لأبنائكم بحُسن التَّأديب والتوجيه الممتلئ بلمسات الدفء وهمسات الحنان، وامنحوها للبيئة بالمحافظة على أشجارها وورودها وطيور الكناري والغزلان الوديعة فيها.

وامنحوها للخالق شكراً بالأقوال والأفعال، ولرسوله باتباع سنته والصلاة عليه كلما ذُكر.

الحِلْم

الحلمُ ديدنُ الحُصَفاء الذين يعيشون الحياة من خلال أفكارهم الواعية والراشدة، ويتعاملون مع الناس من خلال ما تُمليه عليهم أخلاقهم العالية، وسجاياهم المشرقة، وقد أدركوا أنَّ طريقَ الحِلم أكثر سلامةً من طريق العَجلة والتهوُّر فركبوا الأول.

تيقَّنوا أنَّ مبدأ الحلم حبَّةُ لؤلؤ ناصعة البياض في عقد الفضائل فتمثَّلوه.

ما أحوجَنا إلى الحلم في عصرٍ تنوَّعت فيه المشارب الفكريَّة والثقافيَّة!

ما أحوجنا إلى الحلم في وقت تسابقُ مخترعاتُه ومذاهبه - بشتى صورها - جريَ مؤشِّر الثواني في الساعة!

ما أحوجنا إلى الحلم في وقت كثُر فيه المتفيهقونَ ودُعاة الانعتاق من ربقة كلِّ ما هو مقدَّس تحت غطاء حريَّة الفكر والثقافة كما يحدث في بعض المجتمعات الغربية وغيرها من انحلال في الأخلاق وتهتُّك في العلاقات الأسرية والإنسانية!

حاجتنا اليوم إلى الحلم ملحَّة أكثر من أي وقت مضى بسبب انتشار الأدواء المُستحدثة؛ النفسيَّة منها والعضويَّة.

الحلمُ حبلٌ نصلُ به من قَطعنا، ومن جَهل علينا من الأرحام والأصدقاء وجميع الناس.

رحم الله الإمام الشافعيَّ الذي قال[51]:

لستُ مَن إذا جفاهُ أخوه   **أَظْهَرَ الذمَّ أو تناولَ عِرْضا**

بل إذا صاحبي بدا لي جَفاهُ	عُدتُ بالودِّ والوصالِ ليرضى
كُن كما شئت لي فإنّي حمولٌ	أنا أولى مَنْ عَنْ مساويكَ أَغْضى

الحلمُ خُلقٌ عظيم يستعين به النبلاء لتبليغ رسائلهم ومواصلة حياتهم بأمان. فما لم يتحلَّ القائد بالحلم يعرِّض حياة رعيَّته وأمنهم للخطر. وما لم يتحلَّ المعلم بالحلم تصل رسالته مشوَّشة مبتورة للتلاميذ، وما لم يتجمَّل راعي الشياه بالحلم يضلّ قطيعه. فالشجاعة من غير حلم تهوُّر، والكرم من غير حلم تبذير، والقضاء من غير حلم تفريط بحقوق العباد.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله للأشج، أشجِّ عبد القيس: «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحلم والأناة»[52].

قيل للأحنف بن قيس[53]: ممَّن تعلَّمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم المنقريِّ، رأيته قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدِّث قومه حتَّى أُتيَ برجل مكتوف، ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابنُ أخيك قتلَ ابنكَ، فوالله ماحلَّ حُبوته، ولا قطعَ كلامه، ثمَّ التفتَ إلى ابن أخيه، وقال: يا بن أخي أسأت إلى رَحمك، ورميتَ نفسكَ بسهمك، وقتلتَ ابن عمِّك، ثمَّ قال لابن له آخر: قُم يا بنيَّ فحلَّ كتاف ابن عمِّك ووارِ أخاك، وسُق إلى أمه مائة ناقة ديةَ ابنها، فإنَّها غريبة، ثمَّ أنشأ يقول:

إنِّي امرؤ لا يطَّبي حسبي	دنسٌ يهجِّنه ولا أَفَنُ
من مِنفرٍ من بيت مكرمةٍ	والغصنُ ينبت حوله الغُصُن
خطباء حين يقول قائلهم	بيض الوجوه مصاقعٌ لُسْنُ
لا يفطنون لعيبِ جارهم	وهمُ لحفظِ جواره فُطْنُ

ومما قيل في الحلم:

ألا إنَّ حلمَ المرء أكرمُ نسبةٍ	تسامى بها عند الفخار حليمُ
فيا ربِّ هب لي منك حلماً فإنني	أرى الحلْمَ لم يندم عليه كريمُ

فالحلم اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: **2/235**].

وقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود: **11/75**].

اقترنَ الحلم على مرِّ العصور بالذَّكاء وبُعدِ النَّظر والفِطنة، فكم من حليمٍ حقنَ بحلمه دماً، ودرأ فتنةً وردَّ عدواناً.

قرأت كثيراً عن الحلم، لكنني لم أجد أبلغَ من حلم رسول الله مع الأعرابي الذي دخل المسجد وبالَ فيه، وعند ذلك غضب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وقاموا عليه، فما كان منه إلا أن قال لهم: «دعوه وأهريقوا على بوله ذَنوباً من ماء، أو سجلاً من ماء، فإنَّما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[54].

يا للحلم والأناة.! يا لبُعد النَّظر والحكمة!. إنها كلمات تعدِل مجلَّداً مما يُكتب اليوم عن حقوق الإنسان. إنها كلمات تفيضُ بالمعاني الإنسانية السامية، فأوَّل دلالة من دلالات هذه الكلمة أن النبيَّ لم يغضب، والتَمس للأعرابي عذراً، وحمل الأمر على مَحمل الخير.

أما الدِّلالة الثانية فهي أن النبي قد أخذ باعتباره الجانب الصحي لأن كلمة "دعوه" في رواية "لا تزرموه" في اللغة تعني: لا تقطعوا عليه بوله، لأن في حبس البول أو انقطاعه المفاجئ تسبُّباً بالمرض.

أما الدلالة الثالثة والمهمةُ فهي لغة الحوار والإقناع إذلم يُعنِّفه النبي، ولم يُظهر له الإزعاج ولكنه قال له: "هذا بيت الله" ففوجئ الأعرابي، وندم أشدَّ الندم لأنه لم يعرف أن المكان الذي بال فيه اسمه مسجد، وهو بيت الله.

وأما الدلالة الأخيرة التي تُستنبط من هذا الموقف الإنساني التعليمي الراقي فهي مهارة النبي وقدرته على حلِّ المشكلات، وتجلى ذلك في قوله:" أهريقوا على بوله ذنوباً من ماء".

هذا هو مبدأ النبي في التعامل مع الآخرين عند حدوث أي خلل أو مشكل. إنه أسلوب الدعاة المنفتحين الرائعين الوسطيين الذين لا ينتصرون لأشخاصهم ولا لعشيرتهم، ولكنهم ينتصرون لله؛ أي للدين والإنسانية والحق.

قال رسول الله : «يا عائشةُ! إن الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ، ويعطي على الرِّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[55].

ما أحوجنا إلى الِحْلم في هذا الزمن الذي اختلط فيه الحابِل بالنَّابل، وأصبحَ المرء العاقل في حَيرة من أمره!

فمن الأبناء من تتجاذبُه قُوى التِّقانة وتأثيرات القنوات الفضائية، ومن النساء من تعصفُ بهنَّ رياح التقليد الهوجاء والمظاهر الجوفاء، ومن الأطفال من هو أسيرٌ للتلفاز والأفلام، وكل هؤلاء يحتاجون إلى موجِّه حليم ينقذهم مما ابتُلوا به.

الحلم سمةٌ نفيسة يتمثَّلها الأذكياء الذين يريدون الأمان والسلام لبني البشر قاطبةً.

الإخلاص

الإخلاصُ نَسمةُ الهواءِ العليلة التي تجعلُ من كوكب الأرضِ مكاناً يصلُح للعيش، بينما تستحيلُ بانعدامها الحياةُ على سطحِ القمر على الرَّغم من كلِّ دِلالاتِ الجمالِ والروعة التي يمتلكها.

الإخلاصُ كلماتٌ تبني، وأغصانٌ تُثمر، وديَمٌ تُمطر، وبلسمٌ يَشفي بإذن الله، وابتساماتٌ تُلامسُ نبضَ القلوب، فتتدفَّق فيها يَنابيعُ الخير، وتسمو معاني النُّبل والمحبَّة.

سكنَ الإخلاصُ عيونَ المتَّقين ففاضَت من خَشْيَة الله، وراحَت تتأمَّلُ الجمالَ في كلِّ شيء، فترى في الحَجرةِ الصمَّاءِ التي تُؤوي تحتَها قريةً من النَّمل قلباً حانياً، وترى في النَّحلة التي تمتصُّ رحيقَ الزُّهور لتسكُبَه عسلاً نافعاً رحمةً عظيمة، وترى في المرض الذي يستلُّ نضارةَ الوجوه وقوَّة الجسدِ حكمةً ربَّانية.

المخلصُ كالنَّهر الجاري؛ يَنبوعُه في مكان وآثارُه الطيبة في أماكنَ أخرى، فحيثما يجري تجد الخصبَ والنَّماءَ بإذن الله، وهو كالشَّجرة التي جذعُها في مكان، وأغصانها في مكان آخر، وظلُّها في مكانٍ ثالث؛ فمن لم يُصِب من ظلِّها أصابَ من ثمارها، ومن لم يُصب من ثمارها أو من ظلِّها سيصِبْ من حطَبها. قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: **39/11**].

ويكفي من جافى الإخلاصَ قلبُه وعملُه تلك الحسرةُ التي سيشعرُ بها عندما توزنُ الأعمال، ويحصْحصُ الحق، فالله طيبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: **25/23**].

حسبُ المخلصِ تلكَ الراحة النفسيَّة والسعادة الحقيقية التي يَمتلكها فهي أغلى من أموالِ الدُّنيا كلِّها. الإخلاصُ مسكُ الخصالِ الحميدة فإذا ما سكنَ قلبَ إنسان فإنَّك تجدُ معه الصِّدق والمحبَّة والوفاء والصَّفاء. قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: **98/5**].

والإخلاصُ لا يكونُ في يومٍ دونَ يوم، أو في حالةٍ دونَ أخرى، ولكنَّه جبلَّة ترافقُ الإنسان، وسجيَّةٌ ثابتةٌ يتميَّز بها كشجرة النَّخيل التي تتميَّزُ بأوراقها، أو كنجمة الصُّبح التي تتفرَّدُ بقوَّة بريقِها من بين النجوم.

وربَّ موقفٍ عابرٍ يتعاملُ معهُ الإنسان بإخلاص يَعدلُ الدُّنيا ومافيها، وقد يكون هذا الموقف نُصرةَ مظلوم أو إغاثةَ ملهوف، ولربَّما كان كلمةً ليِّنة، أو مسحةً من يدٍ حانيةٍ على رأسِ يتيم.

ومما ورد في حديث رسول الله :"......أسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه"[56].

الإخلاصُ في القلب لا يعلمُه إلا الله الذي يعلمُ السرَّ وأَخْفى، ولكنَّ البشرَ يستدلُّون على الأشياءِ استدلالاً؛ فآثارُ الإخلاصِ تتجلَّى في إتقانِ العمل، وبَذْل الأسباب في تجويده، ونَبذِ الرِّياء والتكلُّف والإفراط في كلِّ الأمور. فآثاره تتبدَّى كما تتبدَّى آثارُ المحبَّة، ومما يحسنُ ذكره في هذا المقام قولُ قيس بن الملوَّح[57]:

أما والذي أبْكى وأَضْحَكَ والذي	**أماتَ وأَحْيا والذي أمرُهُ الأمرُ**
إذا ذُكرت يرتاحُ قلبي لذكرها	**كما انتفضَ العصفورُ بلَّلَهُ القطرُ**

وقول مجنون ليلى:

أليسَ وَعَدْتَني يا قلبُ أنِّي	**إذا ما تُبْتُ عن ليلى تتوبُ؟**
فها أنا تائبٌ عن حُبِّ ليلى	**فما لكَ كلَّما ذُكِرت تذوبُ؟**

وقال في موضع آخر:

والله لو قطعوا رأسي لأهجرها	**لسارَ نحو حماها في الحمى رأسي**

قال شوبنهاور: "حبٌّ بلا إخلاص بناءٌ بلا أساس"[58].

الإخلاصُ هو الخطوةُ الأولى في كلِّ نجاح، ونقطةُ التحوُّل الإيجابيَّة في حياة كل إنسانٍ، ومن ثم في حياةِ المجتمعِ والأمَّة، وهو الراحةُ النفسية التي يَنشدُها الناس، ويبذلونَ لأجلها الغاليَ والنَّفيس. ولو عادَ أحدُنا بذاكرتِه إلى أغلى الأشياءِ في حياتِه لَوجَدَ تلك الأعمال التي أدَّاها بإخلاص على الرَّغم من الجهدِ والتَّعب الذي بُذل وقتئذٍ.

ومما قيل في الإخلاص:

كُلُّ الذنوب فإنَّ الله يغفرها	**إن شيَّعَ المرءَ إخلاصٌ وإيمانُ**
إذا خَلَتِ النَّصيحة حين تُسدى	**من الإخلاص مجَّتها القلوبُ**

وقال جورج صاند: (إنَّنا نشعر بالراحة حين نعمل بإخلاص)[59].

ولا لذَّة للعمل من غير تحري الإخلاص في أثناء تأديته، يقول ابن قيم الجوزية: " العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابَه رملاً يُثقله ولا ينفعه"[60].

وإليكم هذه القصة الرائعة من الأدب العالمي والتي تحكي أهمية قيمة الإخلاص في كل وقت وحين:

«يحكى أن بنَّاءً مبدعاً كبرَ في السن، فطلبَ من صاحب العمل أن يتقاعدَ. ولكنَّ صاحبَ العمل فوجئ بقرار البنَّاء، وحاول أن يُقنِعه بعدم ترك العمل.

قال البنَّاء بإصرارٍ: أريد أن أتقاعدَ عن العمل، وأقضيَ بقيَّة عمري مع زوجتي وأبنائي.

حزن صاحبُ العمل لقرار البنَّاء، لأنه كان من أفضل العاملين عنده.

قال صاحب العمل: حسناً سألبِّي لك طلبك، ولكن أريد منك أن تحقِّق لي أمنيَّة شخصية واحدة، أريدك أن تبني بيتاً جميلاً، هل يمكنك تحقيق هذه الأمنية لي؟

شعر البنَّاءُ بالحرج من ردِّ أمنيَّة صاحبِ العمل وقال: حسناً، أنا موافق. بدأ البنَّاء العملَ، وتجهيز ما يلزم لبَدء البناء، إلا أنه كان يعملُ من غير رغبة حقيقية. لم يكن عملُه كما كان يؤديه بالسابق. لقد كان مستعجلاً لذا فإن العمل لم يكن مُتقناً، وعندما انتهى البنَّاء من البناء بدا المنزل غيرَ متناسِق. وعندما جاء صاحب العمل شكر البنَّاء على تلبيته لأمنيَّته وسلَّمه مفتاحاً..

استغرب البنَّاء من ذلك وقال: لِمَ تعطيني هذا المفتاح؟

صاحبُ العمل: هذا مفتاح المنزل الذي بنيته، وهو هدية بسيطة مني إليك.

فوجئ البنَّاءُ حين سمع هذا الكلام، وتمنى أن يكون قد بنى البيت بصورة أفضل».

ما أحوجنا إلى الإخلاص في هذا الزمن الذي سبقَتنا فيه معظمُ الأمم إلى التقدم العلمي والعمراني، وراحت تسجل في كل يوم اختراعات عظيمة، واكتشافات مذهلة جلبت السعادة والراحة والرفاهية للإنسانية جمعاء!

ما أحوجَنا إلى إخلاص الأمَّهات في تربية الأبناء لتخريجِ جيل عالي الهمَّة، مؤمن بأهداف أمته، حريص على تحقيق مقاصدها السامية! ما أحوجَنا إلى إخلاص المعلمين لكي يخرِّجوا لنا جيلاً يحقِّق الآمالَ المنشودة والأحلامَ الغالية، ويكتبُ على صفحات التاريخ اسمَ أمَّته بسطور من نور!

ما أحوجَنا إلى إخلاص الدُّعاة والعلماء ليقدِّموا لنا الدين صافياً نقياً محبباً مورقاً كما نزلَ من السماء بعيداً عن صراعاتِ المذاهب وتصنيفات المسلمين الذين يشهدون لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الرَّحمة

الرَّحمة ماءُ الحياة، وسِرٌّ من أسرارِ نيلِ السعادة؛ فهي بمنزلة المفاصل التي تَربط بين الأعضاء والأعضاء، وبمكانة الجداول التي تربط بين الحقول والأنهار.

أودَعَ الخالقُ في مخلوقاته نفحةً من فُيوض رحمته فحنَّت الأم على ولدها والظبية على صغيرها، وراحت الأهداب تحرسُ الأحداقَ، كما تحرسُ الأصداف اللآلئ النفيسة.

احتضنت الأوراقُ الثمار؛ لتحجبَ عنها حرارةَ الشمس حيناً، وتصدَّ عنها الرياح العاصفة أحياناً أخرى.

بسطت الأشجار أفياءَها لتظلِّل الأكبادَ الظامئة في الصحراء الحارقة، وتجعلَ من أغصانها ملاذاً آمناً للحُبارى والحمام المسالم.

تصفِّق الرحمة عندما يصفحُ الرائعون عن خصومهم، ويحلُّ الودُّ والصَّفاء بدلاً من الحقد والجَفاء.

الراحمون أصحاب الأيادي البيضاء التي تهبُ البَلسم للأحاسيس الجريحة، وتلوِّنُ الشفاهَ الذابلةَ بحُمْرة الأرجوان المشرقة.

تهبُّ ذراتُ النسيم اللَّينةُ، وتتغلغلُ بين الخمائل السَّاحرة، وتندسُّ بين أوراق الورد وضفائر الأقحوان لتتزوَّد بالعبير البِكْر، ثمَّ تتهادى باختيال، وتسحبُ ذراتها كعروسٍ يتناثر الحسنُ والعطر من قوامها الميَّاس، وعندما تصل إلى الشلال الهادر تملأُ حَفناتها بالندى الصَّافي، وتمضي بسعادة غامرة، وتجلس في أحضان السَّحر، وتظلُّ تنتظر حتى يستيقظ الفجر الحالم

فتنثرُ العطر والندى ممزوجاً بالشوق والفرح هديَّةً ورحمةً لقائمي الليل الذين يترقَّبون مجيء الفجر كما يترقَّب العاشق طيفَ محبوبه الغائب.

لم تكن الرحمة يوماً تعني وفرةَ النقود التي لا تلامسُ أكفَّ الحزانى، فكم جرَّت الأموال النَّكَد والوبال على أصحابها، ولم تكن الرَّحمة يوماً تعني قوَّة السلطان التي لا تُنصِف المظلومين، فكم من قوَّة أورثت أهلها تجبُّراً ومن ثم خراباً ودماراً!

لعلَّ من أرقى صور الرَّحمة تلكم التي تتمثَّل في استثمار طاقات العقلِ بما يؤدي إلى استثمار نفائس الأرض. إنَّ خزائن الأرض وثرواتها لتمدُّ يدها مصفِّقة للمبدعين الذين يَقضون جلَّ أوقاتهم في البحث وصولاً إلى اكتشافها. قدَّم المخترعون بجدِّهم وإخلاصهم وحبِّهم للبشرية رحمات كثيرةً فاخترعوا الطائرة التي تجوبُ الآفاق، وتقطعُ المسافات الشاسعة في ساعات معدودة بدلاً من الجمَل الذي يمشي على رنَّة الحُداء وهُتاف الهوادج، وهاهم اليوم- أعني المبدعين- يستخدمون تقانَةَ الحاسوب والإنترنت في تسهيلِ الحسابات والمعاملات، وإيصال الرسائل والمعلومات من مغارب الأرض إلى مشارقها خلال دقائق معدودة.

أليس من رحمة الله بعباده ما يسَّره لهم من سهولةِ الحصول على المعارف من خلال القنوات الفضائية والجوالات والأقراص المُدمجة والشابكة (الإنترنت)؟!!

أليسَ من رحمةِ الله أن هدانا للإسلام الذي إنما هو سلامٌ وحضارة وسكنٌ روحيٌّ وراحة نفسيَّة؟!!

ومن الرحمة ما نجده الآن من توافر البَلسم الذي يهبُ الشفاء للناس بإذن الله، فما إن يحسّ المريض بقليل من الألم

حتى يُهرَع إلى الطبيب الذي يصف له الدواء المناسب بدءاً من الصُّداع الخفيف وانتهاءً بأخطر الأمراض الفتَّاكة، فضلاً عن فَصْل التَّوائم وزراعة الأعضاء وغيرها.

فَتحيةً كبيرة إلى الرُّحماء الذين يعزِفون رَحماتهم عطاءً رائعاً على أوتار الحياة الرقيقة فتأخذهم الرَّأفة بالطيور التي تُطعِم الفراخ، وبالأشجار التي تظلُّ الثمار، وبالأنهار التي تسقي العِطاش، وبالخمائل التي تزيِّن الكون، وبالغابات التي تؤوي البهائم.

ما أجمل أن يرحم الناسُ النَّاس، ويحس بعضهم بآلام بعض! وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي قال: «المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمه ولا يسلمه، ومن كانَ في

حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربةً فرَّج الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[61].

وثبت في الصحيحين أيضاً، عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ قال: «مثلُ المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى سائره بالحمى والسهر»[62].

وثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، وشبَّك بين أصابعه»[63].

فبرحمة النبي لانَ له الناس، وأحبَّه أصحابه وتبِعوه، وألِفوه فنَمت محبَّتُه في قلوبهم كما تنمو أشجار النخيل على ضفاف الأنهار. قال تعالى في محكم التنزيل: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 3/159].

نعم، أحبَّ الصحابةُ الكرامُ النبي عندما لمسوا الرحمة والحنان في كل فعلٍ من أفعاله، وأحسُّوا بالدفء من كل كلمة تخرج من قلبه الشريف الطاهر.

كيف لا يألفون محمداً، ويحبُّونه وقد رأوا فيه النُّبل والرِّفق بينما كانوا يرتَعون قبل ذلك في أوحالِ الضلال، ويعانونَ القسوةَ وسيطرة القوي على الضعيف، والغني على الفقير!

ورحم الله شوقياً الذي قال في مدح محمد في ميميَّته المشهورة:

أتيت والناس فوضى لا تمرُّ بهم	**إلا على صَنَم قد هام في صَنم**
مسيطرُ الفرس يبغي في رعيَّته	**وقيصر الروم في تيهٍ أصمُّ عم**
والخلقُ يفتِك أقواهم بأضعَفهم	**كالذئب بالبَهْم أو كالحوت بالبَنَمِ**
يعذِّبان عباد الله في شُبَهٍ	**ويذبحان كما ضحَّيت بالغنم**

وكان رسول الله رحيماً مع أصحابه فيما يتعلَّق بالعبادة كذلك، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه : «بينما

نحن جلوس عند النبي إذ جاءَه رجل فقال: يا رسول الله هلكتُ! قال: ما لك؟ قال: وقعتُ على امرأتي وأنا صائم! فقال رسول الله : هل تجد رقبةً تعتِقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيعُ أن تصومَ شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تجد طعامَ ستين مسكيناً؟ قال: لا، قال: فمكَث النبيُّ ، فبينما نحنُ على ذلك، أُتي النبي بعَرَق فيها تمر، والعرقُ المِكتَل [وعاء] قال: أينَ السائل؟ فقال: أنا، قال: خُذها فتصدَّق به، فقال الرجل: أعَلى أفقرِ مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابَتَيها [يريد حرَّتَي المدينة، والحرَّة البركان الخامد] أهل بيتٍ أفقر من أهل بيتي! فضَحك النبي حتى بَدَت أنيابُه، ثم قال: أطعِم أهلك»[64].

ما أشدَّ رحمةَ النبي بالأطفال! فعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله يدخلُ علينا، ولي أخ صغير، يكنَّى أبا عمير، وكان له نُغَرٌ يلعب به، فمات، فدخل النبي ذات يوم، فرآه حزيناً، فقال: "ما شأنه"؟ قالوا: مات نُغَره، فقال: " يا أبا عمير، مافعل النُّغير؟"»[65]. ومن صُور رحمة النبي بالأطفال ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : «قبَّل رسول الله الحسن بن علي، وعنده الأقرعُ بنُ حابسٍ التميمي، فقال: إنَّ لي عشرةً من الولد، ما قبَّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ، ثم قال: " من لا يرحَم لا يُرحم"[66].

ورُوي عنه أنه «كان يصلي وهو حاملٌ أمامةَ بنت زينب– بنت رسول الله – فإذا سجَد وضعها وإذا قامَ حملها»[67].

وكان من شدَّة رحمته بالأطفال، كأنَّما يشتاق إليهم إذا ذهب في سفر، فإذا قدم من سفره، تلقَّاه الناس بالأطفال لما يعرفونه من شدَّة رحمته بهم، فقد حدَّث عبد الله بن جعفر قال: «كان رسول الله إذا قدم من سفر تُلُقِّيَ بصبيان أهل بيته، قال: وأنه قدِم من سفر فسُبِقَ بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، قال: فَأُدخِلنا المدينة ثلاثة على دابة»[68].

يقول المستشرق الفرنسي إيميل درمنغم في كتابه (حياة محمد): " لقد برهن محمد في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قلَّ أن يوجد مثلها في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنِّين والأطفال والنساء، وحذَّرهم من أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة"[69].

ويقول أيضا في كتابه السالف: " إن محمداً رسول الإسلام، لم يكن شخصياً إلا رجلاً أمياً خِلواً من الثقافة تقريباً، كجميع أبناء جلدته في عصره، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لا

حدَّ لها، فأجهد نفسه في أن يعلو على الطبيعة البشرية وأن يقهر في نفسه الميول الانتقاميَّة"[70].

ويقول المستشرق الألماني (برتلي سانت هيلر) في كتابه (الشرقيون وعقائدهم): " كان النبي محمدٌ داعياً إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه، وإن في شخصيته صفتين هما من أجلِّ الصفات التي تحملها النفس البشرية، هما العدالة والرحمة"[71].

فالرحمةَ الرحمةَ بالنساء، والرحمةَ الرحمةَ بالأطفال، والرحمةَ الرحمةَ بالمرؤوسين، والرحمةَ بالجيران، وبالفقراءِ والمساكين، والبهائم.

ولنثِق جميعاً أن الرحمةَ من تَمام حُسن الخلق والإيمان والنبل، ولو شبَّهنا الإنسانَ بالزهرة لكانت الرحمة عطرَ تلك الزهرة، ولو شبَّهناه بالسحاب لكانت الرحمة قطرَ ذاك السحاب، ولو شبهناه بالكتاب لكانت الرحمة سطوره المعبرة وكلماته الخيِّرة.

الكَرَم

يغذِّي الكرمُ النفسَ بالسعادة كما تغذِّي قطراتُ الماء الزهورَ الغضَّة. الكرم قيمةٌ إسلامية، وشيمةٌ عربية أصيلة، افتخَروا بها في أشعارهم ومجالسهم حتى باتَت دواوينُ العرب وقصصهم تزخرُ بما سطَّروه من مواقف الكرم المشرِّفة.

ينمو الكرم في النفوس الطيِّبة المفطورة على العطاء، وزرعِ البسمات فوق الشِّفاه الباسمة، وفي القلوب المحبَّة التي لا يستقيمُ نبضها إلا عندما تُفيضُ العطاء من جنباتها للآخرين.

إنَّ من يسخو بابتسامة بريئة ودعوة في ظهر الغيب لأخيه قد بلغَ مرتبةً سامية من مراتب السَّخاء.

وإنَّ من يسخو بوقته فيُنصتُ لشكاوى أطفاله ويُرضيهم، ويتحرَّى معاناة جيرانه فيخفف عنهم، ويُحسُّ بهموم أهل حيِّه فيحمل عنهم، ويوقظُ أفكار تلاميذه المتناثرة فيهذِّبها ويصقلها، لهو رجلٌ سخيٌّ بحق.

وماذا عن الجود بالنَّفس الذي هو أرقى أنواع السَّخاء، والذي سطَّره الشهداء الذين يذودون عن حمى أوطانهم ومقدَّساتها؟!!

ورحم الله الشاعر الذي قال:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

مبادئ هؤلاء الأجواد سامية؛ فهم يبذلون نفوسهم ليحيا غيرهم أعزاء، ويجوعون ليشبع الناس، ويسهرون لينام الأطفال آمنين، ويسقون روابي أوطانهم بدمائهم لينزرعَ المجد ويخضرَّ العشب.

وهذا ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما تبرَّع بكلِّ ما يملك في سبيل الله ورسوله. وهذا ما فعله عثمان رضي الله عنه عندما حفرَ بئرَ رومة، وعندما جهَّزَ جيشَ العسرة.

فما أكرمَك يا أبا بكر، وما أجودكَ يا عثمان! ما أشدَّ غيرتكما على المسلمين! ما أعلى همَّتكما في البَذل والعطاء!

قال الشافعي في ديوانه:

دع الأيام تفعل ما تشاء	**وطب نفساً إذا حكم القضاء**
ولا ترجُ السَّماحة من لئيمٍ	**فما في النار للظمآن ماءُ**
تستَّر بالسَّخاء فكلُّ عيب	**يغطِّيه ـ كما قيل ـ السَّخاء**

وقال المقنَّع الكندي:

ليسَ العطاءُ من الفُضول سماحةً	**حتى تجودَ وما لديكَ قليل**

ولا يقترنُ السَّخاء بالماديَّات على الدوام؛ فيتبدَّى في بعض الأحايين بابتسامةٍ حانية، وكلمةِ إنصاف، وفي إرواء ظمأ قطَّة تائهة أو غرسةٍ ذابلة في الفلاة.

قال أبو يعقوب إسحاق بن حسَّان الخريمي[72]:

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحله	**ويُخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ**
وما الخصبُ للأضياف أن يَكثُرَ القرى	**ولكنَّما وجه الكريم خصيب**

قال ابن المقرَّب العيوني[73]:

كلُّ السِّيادة في السَّخاء ولن ترى	ذا البخل يُدعى في العشيرة سيِّدا

وقال آخر:

إنَّ الكريم الذي لا مال في يده	مثلُ الشجاع الذي في كفِّه شَلَل
والمال مثل الحصى ما دام في يدِنا	فليس ينفع إلا حين ينتقلُ

فلا ينتظر السخيُّ من إخوته أو جيرانه أو أصدقائه أن يُظهروا له عَوزهم، ولكن ينبغي له أن يتحسَّس أحوالهم، ويبادر إلى مساعدتهم تدفعه إنسانيةٌ شفيفة تملأ نفسه حباً وقلبه تعاوناً.

(يرى ديكارت أنَّ الأسخياء مدفوعون بطبعهم إلى القيام بجلائل الأعمال، ويحسبون أنه لا أعظم من أن يعملوا الخير لسائر الناس)[74].

الكُرماء لا يُعطون من أجل الوصول إلى أهداف بعيدة، فهم مدفوعون بدافع الدين الحنيف الذي يأمرهم بالبَذل والعطاء، وتفريج كُرَب إخوانهم.

العطاء عند هؤلاء غايةٌ للوصول إلى الغاية الأسمى وهي رضا الله سبحانه وتعالى.

ويقول كانت: "افعل دائماً بحيث تعامل الإنسانيَّة في شخصك وفي شخص الآخرين على أنَّها غاية، وليس أبداً على أنها مجرَّد وسيلة"[75].

أيها الأثرياء ازرعوا البسمات فوق شفاه الفقراء والمساكين. فرِّجوا كُرب المكروبين، فلربَّ دعوة منهم تعدلُ الدنيا وما فيها. اغتنموا وجود النعمة قبل زوالها.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله : «لا تحاسَدوا، ولا تناجَشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبِع بعضُكُم على بيعِ بعض. وكونوا عبادَ الله! إخواناً. المسلمُ أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقِره. التَّقوى ههُنا، ويشير إلى صدرهِ ثلاثَ مرات. بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقرَ أخاه المسلم. كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمُه وماله وعرضه. وفي رواية: قال رسول الله . فذكر نحو حديث داود، وزاد، ونقص، ومما زاد فيه: إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»[76].

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا لم تجودوا والأمور بكم تقضى　　　وقد ملكت أيديكم البسط والقبضا

فماذا يرجَّى منكم إن عُزلتمُ　　　وعضَّتكم الدُّنيا بأنيابها عضَّا

وتسترجعُ الأيامُ ما وهبتكُمُ　　　ومن عادة الأيام تسترجعُ القَرْضا

ومن أحسن ما قيل في الجود مع الإقلال قول صريع:

فلو لم يكن في كفِّه غير روحه　　　لجادَ بها فليتَّقِ الله سائله

الأسخياء قواربُ النجاة في البحار الهائجة، وشموع الفرح في الليالي السوداء المظلمة، وعبارات المحبَّة النديَّة في أسماع المحزونين والمكروبين.

الحكمة

سمعتُ أمي- رحمها الله تعالى- ذات مرَّةٍ تقولُ: "درهمٌ من المال يحتاجُ إلى قنطار من العقل"، ومرَّةً أخرى تقول: " لا يحنُّ على العودِ إلا قشرُه". كانت كلمات المثلين أشبه بالألغاز، فلم أتمكَّن من تفكيك رموزهما في ذلك الحين لأنني كنتُ صغير السنِّ، ولكنني أحسستُ أنني منجذبٌ إلى النَّزر اليسير الذي التقطتُه من معاني المثَلين.

وفي مرَّة ثالثة سمعتُ أحد المشائخِ يقول: الحكمةُ هي فعلُ ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي.

منذ ذلك الحينِ بتُّ أهتمُّ بكل ما يتعلَّق بالحكمة والحكماء، وبتُّ أتذوَّق القصصَ التي تجسِّد معاني الحكمة. بتُّ أبحث عنها فوجدتها متجسِّدة في قوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ} [البقرة: **2/269**].

وجدت الحكمة مبدأً وأولوية في حياة رسول الله عندما استقبلَ نصارى نجران في المسجد.

ألفيتُها موقفاً رائعاً عندما قامَ رسول الله لجنازة مرَّت من أمامه، وعندما قال له أصحابه: إنها جنازة ليهودي قال: أليست نفساً؟

قرأت عن الحكمة في حياةِ الصَّحابة رضوان الله عليهم؛ فقد تمثَّل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم مبدأ الحكمة؛ فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول قولَته المشهورة يوم وفاة النبي : "من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت".

وعندما ضاق أحد المساجد بالمصلِّين أمر عمرو بن العاص بهدمِ جدار منزلٍ لرجل نصراني، وعندما بلغ الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بهدم المسجد، وإعادةِ بناء ما هُدم من منزل النَّصراني.

ومن مواقف الحكمة الرائعة التي طالما تأثَّرت بها موقف الحسن والحسين رضي الله عنهما من الرَّجل العجوز الذي كان لا يُحسن الوضوء، إذ طلَبا منه أن يَحكُم على وضوئهما، فشرعَ الحسن والحسين رضي الله عنهما بالوضوء، فأحسَّ الرجل العجوز بالأمر، وشكَرهما على حسن أدبهما في تعليمه الوضوء الصحيح.

الحكمة حارسُ العقل، وصمَّام أمان اللِّسان، وقاربُ النجاة في خضمِّ حياة كلِّ إنسان، وهي خلاصة الأناة والتبصُّر والمحبَّة...

ومما يجدر بنا ذكره في هذا المقام وصيَّة أسماء بنت خارجة الفزاريِّ لابنتها ليلة زفافها إذ أوصتها قائلة: "إنك خرَجت من العُش الذي فيه درَجت، فصرتِ إلى فراش لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألَفيه، فكوني له أرضاً يكن لكِ سماءً، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمَةً يكن لك عبداً، لا تلحفي به فيقليك، ولا تباعِدي عنه فينساك، إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفَظي أنفه وسمعَه وعينه، فلا يشمَّنَّ منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً"[77].

وماذا عن حِكم لقمان الحكيم التي تعدُّ دروساً ومبادئ لحياة آمنة مستقرة؟

قال لقمان الحكيم: " يا بنيَّ جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك فإنَّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض المَوات بوابل السَّماء"[78].

ومن أجمل القصص التي قرأتها ورأيت فيها حكمة ونباهة وعبرة القصة التالية:

«يُحْكى أنَّ رجُلاً وابنه كانا يسيرانِ في البراري قُرْبَ أحد الجبالِ المُرتفعة، فسقطَ الولدُ فجأةً، وصاحَ من شدَّةِ الأَلَمِ (أَخْ، أَخْ، أَخْ) فسَمِعَ صوتاً يتردَّدُ بمكانٍ ما في الجبلِ (أَخْ، أَخْ، أَخْ). عندئذٍ دفعَ الفُضولُ الغلامَ وقال بأَعْلى صَوته: مَنْ أَنْتَ؟ مَنْ هُناكَ؟ فسمعَ صوتاً يُجيبُهُ: مَنْ أَنْتَ؟ من هناكَ؟ عندَها صرخَ الغلامُ وقال: أنا أَتَحَدَّاكَ، فسمعَ صوتاً يُشبه الصَّوت الأولَ يُجيبُه: أنا أتحدَّاكَ. غضبَ الغلامُ وقالَ مخاطباً الجبلَ: أنتَ جبانٌ، فردَّ الجبلُ قائلاً: أنتَ جبانٌ.

نظرَ الغلامُ إلى والده بحَيْرَةٍ وقال: ما الَّذي يجري هنا؟ من الذي يتحدَّاني يا أبي؟ تبسَّمَ الوالدُ وقالَ: انتَبه يا بنيَّ، أنا سأتكلَّمُ الآن. صاحَ الأبُ قائلاً: أنتَ بطلٌ، فتكرَّرَ الصوتُ نَفسُه: أنت بطل. استغرَبَ الغلامُ، لكنَّه لم يَفْهَم شيئاً بَعْدُ. عندَ ذاكَ قالَ الوالدُ: هذا الصوتُ الذي يكرِّرُ ماتقولُه يُسَمَّى صَدى الصَّوتِ. وهذا في الحقيقةِ يا بنيَّ يُشْبِهُ صورةَ عملِ كُلِّ واحدٍ في الحياةِ.

نظرَ الولدُ إلى والدِهِ بفَرحٍ، وقالَ: شكراً لكَ على هذهِ المعلومةِ يا أبي، ولكِنْ ما وجهُ الشَّبَه بين الصَّدى وبين عمل الإنسان؟

قال الأبُ: عندما تَغْرِس أشياءَ جيدةً، فإنَّك ستحصُدُ أشياءَ جيدةً، وعندما تستعِدُّ للامتحانِ بشكلٍ جيِّدٍ وتعطيهِ حقَّه فستكون نتيجتُك جيدةً أيضاً. وعندما تفعل أشياءَ سيِّئةً ستحصدُ نتائجَ سيِّئةً. قال الابنُ: شكراً جزيلاً لك يا أبي، لقد استفدتُ كثيراً منكَ اليومَ».

ومن قصص الحكمة الجميلة تلك القصة التي حدَثت في زمن داوود وسليمان عليهما السلام: «خرجت امرأتان تحملُ كل واحدةٍ منهما طفلاً صغيراً لقضاءِ بعض الوقت في البريَّة، فانشغلَت المرأتان عن ولديهما، فجاءَ ذئبٌ وخطَف ولداً منهما، عادت المرأتان، وشرَعت كل واحدة منهنَّ تقول: هذا ولدي.

قررت المرأتان أن تذهَبا إلى داوود عليه السلام ليحكُم بينهما، فقضى داوودُ عليه السلام أن يكونَ الولدُ للكبرى لما رأى منها من بكاء وإصرار وقوة في الحجَّة.

ثم قررت الصغرى أن تستشيرَ سليمان عليه السلام بالأمر، فأحضر سليمانُ عليه السلام سكِّيناً وقال: سأشقُّ هذا الطفل نصفَين، وأعطي كل واحدة منكما نصفاً، عندئذ قالت الصغرى: لا تفعل يا نبيَّ الله، أنا متنازلة عن هذا الولد، فقضى سليمان أن يكونَ الولدُ للصغرى لما رآهُ منها من رحمة به».

«دخلَ الأحنفُ بنُ قيس على معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما فأشار له إلى الوِساد فقال له: اجلس. فجلس على الأرض. فقالَ له معاوية: وما منعَك يا أحنفُ من الجلوس على الوساد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيسُ بنُ عاصم المنقري ولَده أن قال: لا تغشَ السلطان حتى يملَّك، ولا تقطَعه حتى ينساك، ولا تجلِس له على فراش ولا وِساد، واجعل بينَك وبينه مجلسَ رجُل أو رجُلين؛ فإنَّه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له، فيكون قيامُك زيادة له، ونقصاناً عليك. حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعلَّه أن يأتي من

هو أولى بذلك المجلس مني؛ فقال معاوية رضي الله عنه : لقد أوتيت تميم الحكمة، مع رقَّة حواشي الكلم»[79].

ومن روائع ما قيل في الحكمة قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلاً	**ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد**

وقال بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	**ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟**

وقال آخرون:

ومن العداوة ما ينالك نفعُه	**ومن الصَّداقة ما يضرُّ ويؤلمُ**
قدِّر لرجلك قبل الخَطو موضعها	**فمن علا زلقاً من غرَّة زلقا**
ولكلِّ شيء آفة من جنسه	**حتَّى الحديد سطا عليه المبردُ**
ما كل مثمرة تحلو لذائقها	**إن السياط لها من مثلها ثمر**
ما حكَّ جلدك مثل ظفرك	**فتولَّ أنت جميعَ أمرك**
بصرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها	**تُنالُ إلا على جسر من التعب**

ومن أجمل ما قرأت من الشعر في هذا المقام قول الشاعر:

ما بين غمضة عين وانتباهتها	**يغيِّر الله من حال إلى حال**

تعيش الحكمة في القلوب التي تنبِض بمحبَّة الآخرين، تتألَّم لآلامهم، وتفرحُ لفرحهم، وتنمو شجرتُها في النفوس التي تتَّخذ الصَّفح وقبولَ الأعذار وتقدير مشاعر المبتلين والحزانى

مبادئ حياة. لا تلتقي الحكمة مع العَجلة أو الإعجاب بالنَّفس، ولكنها تلتقي مع التؤدة والاتزان والتعقُّل، وإنَّ غيابَ الحكمة عن منهج إنسان يعدُّ بمنزلة غياب القمر عن قبَّة السَّماء.

خلَّد التاريخ الحكماء، وزيَّن بمآثرهم سطورَ مجلَّداته، ولكنَّه أهمل الرُّعْنَ الذين جرُّوا بقراراتهم الطائشة الويلات والحروب على بني البشر. ما أنبلَ دور الحكماء الذين يربِطون العُرا التي طالما تمزَّقت، ويجمَعون القلوب التي طالما تفرَّقت، ويجمِّلون الصُّور التي طالما رآها بعضهم قبيحة!

الحكماء هم أولئك الآباء الذين يخصِّصون لكل واحدٍ من أبنائهم طريقة في التخاطب والمعاملة وحلِّ المشكلات.

الحكماء هم الصَّخرة التي تتكسَّر عليها مخططاتُ الحمقى العابثين، وتصرُّفات الجهَّال غير المسؤولة. وهم أولئك الفقهاء الذين يريحون قلبَ السائل، ويفتحونَ شبابيكَ نفسه قبل أن يبادروا لفتح المراجع التي تتناول الحكم الفقهيَّ.

الأبطال الحقيقيُّون سلاحُهم الحكمةُ وليس الأسلحة الكيماويَّة والفوسفوريَّة التي يحرقون بها أجسادَ الأطفال الأبرياء، ويبيدون الأشجار والورود.

أتمنى أن أفتح حقائبَ أبنائي ذاتَ يوم فأرى فيها كتباً عنوانها " الحكمة ".

أتمنى أن تُنشئ الجامعات كليَّة لتعليم الحكمة.

الحُريَّة

الحرية أغلى من الهواء الذي نتنفَّسه، والماءِ الذي نشربه، والطفل الذي نلاعبُه ونداعِبه، والزوجة التي نحبُّها، والبيت الذي نسكنه. ما أشبهَها بجناحي الطائر، ومجاديف الصياد، ويراعة الكاتب!

إنما هي هبةُ الخالق للإنسان، ودلالة من دلالات تكريمه، وتقديره.

الحرية جناحُ الإبداعِ، وعجَلةُ التفوق، وجوهر الكرامة، وبلسَم السعادة، وواحة البَذل والعطاء.

الحرية سِفرٌ باسم؛ سجلُّه ورقُ الزهر، وسطورُه رحيق الورد، وحروفُه تغريداتُ البلابل، وهمَسات الجداول.

تنزعُ النفس إلى الحرية نزوعَ الطائر للفضاء الرحب، ونزوعَ العاشق لرؤيةِ من يحبُّ، ونزوع القمر للقاء الشمس.

فاقدُ الحرية وفاقد البصر سواء؛ إذ يحسُّ الأخير بالأشياء، ويتلمَّسها ولكنه لا يدرك روعتَها، ولا يستشعر جمالها...

فاقد الحرية طفلٌ ماتت أمه، وربيعٌ هربت منه زهوره، ومسافر في عرض البحر ضاعَت بوصلته، وعصفور وجد نفسه فجأة في قفص سدَّ عليه المهارب.

إن من يسلب حريَّة إنسان كمَن يضع عصفوراً طليقاً في قفص، وكمن يمسك غزالاً يتنقَّل بين الغدران والخمائل، ويحبسه في حظيرة ضيِّقة.

إن من يسلب حريةَ الآخرين، ويقيِّد أفكارهم، ويختارُ لهم ما يقرؤون، ويقرِّر بالنيابة عنهم ما يعتقدون، ويختار لهم ما يحبُّون وما يكرهون، ويُلزمهم على التصفيق والتطبيل والمجاملة هو فرعونُ عصره.

كيف تُسلَبُ الحرية، ومنزلتها من النفس بمنزلة النبض من القلب، ومنزلتها من الكون بمنزلة الشمس من السماء؟!!

الذين يعبِّرون عن الحرية حقَّ التعبير هم أولئك الذين سُلبوها، وحُرِموها رَدحاً من الزمن، وهم أولئك الذين يستشعرونَ أهميتها في بَلورة إنسانيَّة الإنسان وتجسيدها.

الحرية أثمنُ من الألماس، وأغلى من الكنوز، وأشهى من المنِّ والسلوى، وأبهى من القمر، وأنضر من الربيع...

لأن الحريةَ تعني الإنسانيَّة....

لأن الحريةَ تعني كرامةَ البشر....

لأن الحريةَ نافذةُ العقل إلى عالم المعرفةِ، وبلسمُ النفس، وغذاءُ المشاعر والأحاسيس.

يُضحِّي فاقدوها من أجل استردادها من الظَّلَمة، ويغامرونَ بحياتهم من أجل الظفرِ بها كما يغامرُ صيادو البحر بحثاً عن اللؤلؤ والمرجان.

كل ما ينشدُه هؤلاء الأحرار أن يكتبوا كلماتٍ حقيقيَّة، وأن يعبروا عن مشاعرهم الحقيقية، لا أن يسمُّوا الأسودَ أبيض، والأصفر أخضر، والباطل حقًّا، والظلم عدلاً.

ورحم الله عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه عندما قال: "متى استعبدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

وقيل: " الحرُّ في القفص لا ينسِل".

ما أروعَ الحريةَ التي جسَّدها أبو بكر رضي الله عنه عندما أعتقَ بلالاً الذي يفتخر بانتمائه إلى الإسلام، ويقول:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه　　　إن افتخروا بقيس أو تميم

نحنُ لا نريدُ الحرية العابثةَ، الحريةَ التي تُبيحُ اللَّذائذَ، والمنكرات، وتوفِّرُ أسبابَ الرذيلة، والانفلات، ولكننا نريد حريةً يُنتجها الفكرُ المحبُّ، حرية تقومُ على وضع تحقيقِ الأهداف الساميةِ للأمة نصبَ عينيها، حريةً تقومُ على احترام آراء الجميع والاستماع إلى أفكارهم ومناقشتها، وإعطاء الفرصةِ للجميع، وتقديرِ إبداعاتهم ومواهبهم بصرف النظر عن العرق واللون والمذهب، حريةً تهدف إلى الارتقاء بالمجتمع نحو ذرا المجد والفخار، وتحقيق الألفة والمحبة بين جميع أفراده.

ليست الحرية أن نفعلَ ما نشتَهي في الطريقة التي تروقُنا وتناسبُنا من غير أن نأخُذَ بالاعتبار قوانينَ الذوق العام للمجتمع الذي نعيش فيه، وليست في أن نقولَ كل ما يخطرُ على بالنا حتى لو كان حقاً من غير تقدير للموقف وتأمُّل في مغازي الكلام وانعكاساته. قال الشاعر:

جراحات السِّنانِ لها التئام ... ولا برءٌ لما جرحَ اللِّسانُ

تتجلى الحرية في أسمى معانيها وصورها عندما ينطلِق الناسُ من فهمٍ ثاقبٍ لخميلة الإنسانيَّة الغنَّاء التي تتمازجُ فوقها أناشيدُ الطيور، وتهفو إلى شَذاها نسائمُ البحور، وتتوحَّد فوقها ألوان الأعلام، ومشاعرُ الإنسانِ؛ خميلة توفِّق بين الانتماءات كما توفِّق بين العُملات، وتحترمُ الأبجديات والاتجاهات كما تحترم الثروات، وتنتصر للبؤساء كما تحابي الأثرياء.

ما أجمل أن يعملَ المربونَ على غرس مفاهيم الحرية الراشدة في نفوسِ أبنائهم بدلاً من ثقافة الانفلات، والفوضى والعبثيَّة، ويعلِّموا أبناءَهم كيف يميزون بين الصراحة والوقاحة، وكيف يقفون عند إشارات المرور الضوئية، وعند مشاعر الآخرين الإنسانية.

ومن اللَّفتات الجميلة في القرآن الكريم ما جاء في سورة الغاشية: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: **88/22**].

وقوله تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: **2/256**].

ومن الأقوال التي أعجَبتني في هذا السياق ما ألفيتُه في موسوعة الحكم لروحي البعلبكي، ص: **221-222**:

أبراهام لنكولن: " لا أحد يحبُّ قيودَه، ولو كانَت من ذهب".

أندريه موروا: " الحرية والمسؤولية توءمان، لو انفصَل أحدهما عن الآخر ماتا جميعاً".

ميخائيل نعيمة: " الحرية أثمن ما في الوجود، لذلك كان ثمنها باهظاً".

فيكتور هوجو: " الحرية هي الحياة، ولكن لا حرية بلا فضيلة".

تفقد الحرية معانيها ومغازيها عندما تحملُها يد طائشةٌ، وعندَما ينادي بها لسانٌ منفلت، وعندما تخطُّ حروفَها أقلامٌ كئيبة، وعندما يمارسها الرُّعن والطائشون.

نريدُ حريةً خضراءَ زاهيةً نديَّةً، لا حريةً حمراءَ مضرَّجةً بالدماء، والألم والتَّشريد....

ولا شكَّ في أنَّ الأحرارَ الحُصفاءَ سينتصرونَ في النهاية؛ لأنهم ينادونَ بحقٍّ مَنَحهم الله إياه، وأقرَّته جميعُ الشرائع والقوانين.

الإيمان

تُشرقُ الشمس فتتفتَّح الزهور، وتبتسمُ الفيافي، ويسيلُ الندى على خدود الورد فيملأُ الأفقَ بالشَّذى. يسطعُ القمر فيمدُّ البحر بساطَ أمواجه السَّاجية، ويبادر الشواطئ المشتاقَة بالتحية، ويصغي إلى أشعارِ النجوم وهي تتغزَّل في حُسن القمر.

تنبضُ القلوب بالإيمان فَتصفِّق لها الأجساد، وتحكي سعادتَها صلاة وسجوداً ودعاءً وفعلاً للخيرات.

يسكنُ الإيمان القلوبَ المخلصة فينمو ويكبر، ثمَّ يُثمر فيُثمرُ أروع الكلمات، وأنبلَ التصرفات، وأزكى البسمات.

الإيمان مظلَّة نديَّة ومُزنة كريمة وأرضٌ خصبة تنمو فيها الفضائل كما تنمو الأعشاب الطريَّة على ضفاف الأنهار.

فلو نشَدتَ الإخلاص من أين جاء، والصِّدق كيف نما، والتَّضحية كيف تألَّقت لأجابوك جميعاً قائلين: إنَّ الإيمان هو من ولَّد، وهو من سقى، وهو من صفَّق وبارك بإذن الله.

الإيمان هو التَّصديق الذي ينتجُ عنه التقاءُ القول بالفعل، والكلمات بالأعمال. الإيمان يتكلل بمعاني النبل كما تتكلَّل الشمس بالضياء والفجر بالعطاء، والورد بالعبير.

المؤمنون هم المبدعون الشُّجعان الذين ملؤوا أسفار التاريخ بالأمجاد، وكتبوا بأقلامهم المؤمنة روائع الكلمات. تحدَّوا الجبال فركبوا قممَها، وبنوا عليها حصوناً منيعة، وفهموا لغةَ البحر، فجَمعوا الأخشاب، وصنعوا منها السفن، وعندما لم يجدوا الأخشاب خاضوهُ بجيادهم الشُّجاعة.

المؤمنون هم أولئك المبدعون الذين يواصلونَ رحلة البحث والقراءة والاستكشاف، لأن ثقتهم بالعقل الذي أودعه الخالق في رؤوسهم كبيرة.

تأمَّلوا منظر القمر، ثمَّ تأمَّلوهُ ثانيةً وثالثة، فأدركوا السرَّ الذي ذكره القرآن الكريم: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: **36/39**].

راقَبوا النجوم، ثمَّ راقبوها وراقبوها، ففهموا أنها زينةٌ للسماء، وعلامات يهتدي بها المسافرون، قال تعالى: {وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: **16/16**].

أعملوا أذهانهم في كيفية خلق الإنسان، فكتبوا البحوثَ، وسكنوا المختبرات، ثمَّ استقرؤوا، واستنتَجوا واستقرؤوا حتى عادوا إلى الاستنتاج الحكيم من كتاب الله العزيز: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [غافر: **40/67**].

الإيمان دافع ومحرِّك؛ يدفعُ العقل إلى التفكُّر والجوارح إلى الاستجابة، ولولا ذاك ما بلَّغَ نبيٌّ دعوتَه، ولا صبرت أمٌّ على تربية أولادها، ولما خاضَ الجنود المعارك وهم يحملون السيوف وجهاً لوجه مع الأعداء ذوْداً عن دينهم، وحمى أوطانهم ومقدساتهم ومرابع ذكرياتهم.

الإيمان لا يقف عند حدود المحاريب ونداءاتِ المنابر الرنَّانة، والدروس والخطب العصماء المجلجِلة، بل هو أفعال وأعمال خيرة يعمُّ نفعها عيالَ الله. الإيمان أكبر من أن يقِف عند حدود الهيئات والأشكال والحركات.

علاقة الإيمان مع الجسم تتركَّز في القلب الذي إذا صلَح صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَ فسد الجسدُ كلُّه. الإيمان النَّافع ذاك الذي يقدِّم الخيرَ والنُّصح للناس، والإصلاح للمتخاصمين، والتشجيع للمتعلِّمين. الإيمان حبلُ الله القويم وصراطه المستقيم.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

اشدد يديك بحبل الله معتصماً **فإنه الركن إن خانتك أركانُ**

والشاعر الآخر الذي قال:

إذا آمن الإنسان بالله فليكن **لبيباً ولا يخلط بإيمانه كفرا**

الإيمان محبَّة وإيثار وإحسان إلى الجيران وتلمُّس حاجات الآخرين.

عن أنس عن النبيِّ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[80].

ويقول عائض القرني في كتابه (لا تحزن): " إن هذا الإيمان هو سرُّ الرضا، والهدوء والأمن، وإن الحيرة والشقاء مع الإلحاد والشك"[81].

ومن ثَمرات الإيمان الشعورُ بالراحة النفسية والطمأنينة والسَّكَن الذي يولِّدُ الرِّضا والقناعة في نفس المؤمن، ومن ثمرات الإيمان أنه يجنِّب النفوس الوقوع في حبائل الحسد والجشَع والغيرة والتَّقاتل على فُتات الدنيا. وأعظم ثمرات الإيمان بالله نيل رضا الخالق الذي يفضي إلى دخول الجنة.

القناعة

جميع ملذَّات الدنيا ومباهجِها لا تستحقُّ أن يسخِّر لها الإنسان جميعَ جوارِحه وطاقاته الجسمانيَّة والعقلية. فالقناعة كنز لا يفنى لأنَّ ما أصابَ الإنسان لم يكن لِيُخطئَه، وما أخطأه لم يكُن لِيصيبَه.

وما قُسم للإنسان فسيناله، وما قُسم لغيره فهو لغيره، ولن يكونَ له. فمِن الظلم أن يرهِقَ الإنسانُ نفسَه، ويلهَثَ ليلاً ونهاراً خلفَ فُتاتِ الدُّنيا ودراهمها على حساب الجوانب الروحانية والإنسانية في حياته.

قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: **11/6**].

وقال رسول الله : «قد أفلح من أسلمَ، ورزقَ كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه»[82].

قال الإمام الشافعي:

عزيزُ النَّفس من لزمَ القناعة	**ولم يكشفْ لمخلوقٍ قِناعه**
أفادتني التَّجاربُ كلَّ عزٍّ	**وهل عزٌّ أعزُّ من القَناعة؟**
فصيِّرها لنفسك رأس مالٍ	**وصيِّر بعدها التقوى بضاعة**
ولا تُطع الهوى والنَّفس واعمل	**من الخيرات قَدْرَ الاستطاعة**

لا تتعارضُ القناعة مع الدَّعوة إلى العمل والكَسب الحلال، ولكنَّ القناعة تتعارض مع العمل عندما يصبح شعاراً ملحاحاً لجمع المال، وسبباً لإرهاقِ صاحبه، وإبعادِه عن مسؤولياته الجسيمة كتربيةِ أبنائه وصلة أرحامه وأداء عباداته.

ورحم الله الشاعر الذي قال:

إنَّ القنوع نفيسُ النَّفس راشدها	**وهو الغنيُّ الذي يحيا بلا نَصَب**
وذو المطامع مغرور ومفتقرٌ	**ولو حوى مُلْكَ سلطان وعلمَ نبي**

القناعة رمزٌ من رموز نبل الإنسان وعفَّته، فالقانعون يملكون المليارات، ولكنَّ فطرتهم السويَّة تأبى التبذير، وترفض الإسراف فيعتدلِون في العيش، ويعيشون وسطاً بين الناس.

ورحم الله أبا فراس الحمداني عندما قال:

غيري يغيِّره الفِعالُ الجافي	**ويحولُ عن شيَم الكريم الوافي**
لا أرتضي ودًّا إذا هو لم يدُم	**عند الجفاء وقلَّة الإنصاف**
ومكارمي عدد النجوم ومنزلي	**مأوى الكرام ومنزل الأضياف**
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً	**فإذا قنعتَ فكل شيءٍ كافِ**

ويا لشقاءِ النفوس التي تغلِّبُ الطمع على القناعة، وتبدأ تلهثُ وراء المادة والشَّهوات فتشقي جوارحها، وترهق أفئدتها بمحبة عرَضٍ زائل. وما أبلغَ قصَّة حقل الألماس التي تحكي قصَّة مزارعٍ إفريقيٍّ عمل في مزرعته إلى أن تقدَّم به العمر، وذات يوم سمع هذا المزارعُ أنَّ بعضَ الناس يسافرون بحثاً عن الألماس، والذي يجدُه منهم يصبحُ غنياً جداً؛ فتحمَّس المزارع للفكرة، وباع حقله، وانطلق باحثاً عن الألماس. ظلَّ الرجل ثلاثة عشر عاماً يبحث حتى أدركه اليأس ولم يحقِّق حلمه فألقى نفسَه في البحر ليكون طعاماً للأسماك، غير أن المزارع الجديدَ الذي اشترى حقلَ صاحبنا وبينَما كان يعمل في الحقل وجد شيئاً يلمع، ولما التقَطه وجده قطعة صغيرة من الألماس، فتحمَّس وبدأ يحفِر ويحفِر وينقِّب بجدٍّ واجتهاد، فوجدَ قطعةً ثانية وثالثة، يا

للمفاجأة! لقد كان تحت حقله منجمُ ألماس. إنَّ المزارعَ العجوز بحث عن الألماس في كل مكان ولم يبحَث عنه في حقله الذي يمضي جلَّ وقته فيه، ولعلَّه وجد ألماسة ولم يُلق لها بالاً.

ما أشجع القانعين في زمن تتنافس فيه المصانع والمعامل والمعارض على إغراء الناس وتلميع الحاجات وزخرفة السِّلع لهم!

ما أروع القانعين الذين يتحرَّوْن الكسْب الحلال في عالمٍ طغت فيه لغة الأرقام والأسهم وامتلاك العقارات والمزارع والقصور الفارهة وغيرها!

يقفُ أصحاب القناعة شامخين أعزَّاء في عالم يتنافس فيه الناس على الدُّنيا...

القناعةُ كنزٌ لا يفنى؛ وكيف يفنى كنز القناعة وهو محصَّن بالبركة ومعطَّرٌ بالعفَّة؟

الحياء

رأيت من صنوف الجمال ما رأيت فلم أجد أروع من إطلالة الحياء. تأمَّلتُ رياضَ الزَّهر وخمائلَ الورد وأغصان الثَّمر وقطَرات النَّدى، ثم نظرتُ إليه فكانَ الحياء هو الأجمل.

أمعَنتُ النَّظَرَ في حُسن القمر وبريقِ النجوم ووجهِ الشمس وشموخِ السِّنديان ورشاقةِ الغِزلان ثم نظَرت إلى الحياء فوجدتُه الأحلى.

قارنت بينه وبين رقَّة النَّسائم فكان أكثر رقَّةً، وقارنتُ بينَه وبينَ براءة الطفولة فكان أكثر براءة.

إنه الحياء اللَّطيف، الحياء المنير الذي يسكُنُ النُّفوس الصافية فيملؤها روعة ونقاءً، ويحطُّ بجناحيه فوق الأهداب فيزيدها وقاراً وسحراً، ويهبُّ بنسائمه على الربوات فيحمل الزهور على الفوح والبلابل على البوح والحمام على الهديل والغدران على الجريان والشلالات على الهدير.

إنه الحياء الذي إنما هو رحيقُ الخُلق وثمرة النُّبْل، رأيتُه في وجوهِ الشباب وقاراً، وفي عيونهم جمالاً وفي قوامهم اتِّزاناً، وعندما اقتربتُ منهم أكثرَ وحادثتُهم، فوجدته في كلامهم بياناً وصدقاً وفي أخلاقهم عطراً ونُبلاً، وفي سلوكهم برّاً للوالدين، واحتراماً للآخرين.

رأيته في النِّساء حشمةً وحناناً وإكباباً على تربية النَّشْء وحياكةً لبيارق مجد الأمة. ثمَّ اقتربت أكثر فاستنطقتُ الأفئدة عن الحياء فأماطت الخمارَ، وقالت: هذا هو الحياء، يا للدَّهشة..يا للرَّوعة..بل يا للفَرحة!

لقد رأيت الحياء دُرَّة بيضاءَ تتلألأ وسط القلب ينبعثُ منها سناً أخَّاذٌ باهرٌ، وعندما سألت القلب عن سرِّ هذا السَّنا تهلَّلَ وجهُه بالبِشْر. عندئذ فهمتُ أن السَّنا الذي ينبعثُ من الحياء هو

الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله قال: «الإيمان بضعٌ وستُّون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[83].

ورحم الله الشاعر الذي قال:

فلا والله ما في العيش خير	**ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ**
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ	**ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاءُ**

الحياء زينةٌ وجمال فقد كانَ النبي أكثر حياءً من العذراء في خِدرها، وكان عثمان رضي الله عنه وقوراً حييّاً. حاجتنا ملحَّة إلى الحياء في وقتٍ تتسابق فيه القنوات الفضائية وسماسرة الصُّور والأقراص المدمجة المفسدة للظفر بأخلاق الشباب والشابات، وتفتيت عرا الحياء عندهم.

لكم أتمنى أن تستفيق إرادة جميع الناس فيحاربوا دعاة المنكر ومروِّجي الرذيلة.

ليس الحياء مادةً تدرَّس في المدارس أو كتاباً يُشترى من المكتبات، أو وصفة توجد في أماكن بيع الأدوية، ولكنَّه خُلق قويم، وقيمة نبيلة تنبتُ في النفوس الصَّافية التي تعرف قَدر الخالق وعظمَته، وتدرك قيمةَ الإنسان ومكانته فتعامله على أساس راسخ من المحبَّة والتقدير.

ليس من الحياء أن نطالب بكلِّ شيء، وأن نقول كلَّ شيء، وأن نصِفَ كلَّ شيء، فالحياء رضاً وأخلاق ومحبَّة واعتدال.

ليس من الحياء أن ننبشَ المستور، ونميطَ اللثام عن المخفيِّ، وأن نتقصَّى ونؤوِّل ونعزو.

ما أبلغ قوله تعالى عندما يقول: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِه حَديثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِه وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: **66/3**].

الحياء وردة فواحة تنثر المسكَ يمنةً ويسرة، وخصيصة تعبقُ بعطر الإنسانيَّة المحبَّب الذي بات عزيزاً في هذه الأيام.

يا قلائد الياقوت والزمرُّد جمِّلي الحييَّات الماجدات!

يا أساور الألماس وحبَّات اللؤلؤ صافِحي معاصم الحسناوات الحرائر!

يا بيارق المجد الرفَّافة ضُمِّي هامات الأتقياء الحييَّة!

أيتها الأمهات الطيبات والفتَيات العفيفات والأخوات الرائعات ما أروع حياءكنَّ! ما أشبهه بالمسك الذي يفوح من الزهرة، وبالنور الذي يتهلل في وجه الشمس!

أيها الرجال والشباب والفتيان، ما أروع صوركم عندما تجمِّلونها بالحياء!

العِلم

العلمُ شلالُ العطاءِ المتدفِّق، وكوكبُ الحقيقة المتألِّق، والغصنُ المورقُ في شجرة النَّفسِ والحياة. العلمُ وصفةٌ تأنس لها فطرةُ القلوب فتسعد وترقُّ، ومادةٌ مشرقة تبتسمُ لها الأرواح فتضيءُ الجوارح في آفاقها وتأنَس.

بالعلم تحيا القلوب فتسمو وتُثمر، وتزكو النُّفوس فتصفو وتحبُّ، وتعذُبُ الألسنة فتستقيم وتصدُق، وترقى الأفكار فتُصدِّر المعرفة والسلامَ والأمان والجمال.

العلم يحرِّكُ النفوس الراكدةَ فتفوح بالمعرفة كما يحرِّك نسيم الصَّبا الورودَ فتفوح بروائح الطيب.

العلمُ شاطئٌ ليِّن تنتهي إليه الأمواجُ الهادرة فيهدأ روعُها وتعود راضيةً، وضفَّتا نهرٍ تحتضنان المياه التي تسقي الزروع الظامئة، وخميلةٌ وارفةُ الظلال ترتاح النفسُ إليها، وتطلِقُ العنانَ لخيالاتها وأحاسيسها.

العلمُ مهابةٌ في الوجه، وذكاءٌ في القلب، وحياءٌ في العينين، واستقامة في اللسان، فهو قصرُ من لا دار له، وسلطانُ من لا قبيلةَ له، وكنزُ من لا مال له، وأنيسُ من لا خلَّ له.

يبتسمُ العلم عندما يكون مع الفلاح في حقله، والبائع في متجره، ويصفق عندما يتصدَّرُ مجالس النساء والرجال والصغار، ويُقدِّم كتيبات متنوعة وقصائد مشوقة في المناسبات بدلاً من صنوف العصائر والحَلْوَيات والسَّكاكر ولفافات التبغ.

يحلِّقُ العلم، ويسعَد عندما تتحرَّر أجنحته من القيود، وتُفتَحُ له النوافذ ليرسل أشعاره الشجيَّة عبر الآفاق الفسيحة، ويعزف حروف النجاح لحناً آسراً في كل مكان يحلُّ به.

يبتسمُ العلم عندما ينتقلُ من السطور إلى الصُّدور، ومن الألسنة إلى الجوارح، ومن النظريات إلى الواقع المَعيش.

العلماء الحقيقيون هم المعلمون الذين يملؤون نفوس الطلاب بالأمان، ويزرعون فوق شفاههم البسمات قبل أن يملؤوا دفاترهم بالكتابة.

العلماء الحقيقيون هم أولئك الذين يحرصون على التأليف ما بين القلوب أكثر من حرصهم على تأليف المجلَّدات. العالم الثَّبْتُ يتمثَّلُ هدي المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ، فيختلفُ إلى الفقراء، ويجالس الباعة، ويداعبُ الأطفال، ويحاور المتفيهقين بالتي هي أحسن، ويدعو إلى الله على بصيرة.

العلماء الحقيقيون هم الأطباء النَّزيهون والمهندسون المخلصون والقضاة المنصفون والمعلمون البناة والتجار الصادقون والمزارعون النشيطون.

ورحم الله الشافعيَّ:

تعلَّم يا فتى والعود رطْبٌ	**وطينُكَ ليِّنٌ والطَّبع قابِل**
فإنَّ الجهل واضعُ كلِّ عالٍ	**وإنَّ العلمَ رافعُ كلِّ خامل**
فحسبك يا فتى شرفاً عزيزاً	**سكوتُ الحاضرين وأنت قائل**

العلم أغلى من الهواء الذي يُستنشق، وأشهى من الماء الذي يُشربُ على ظمأ. نعم، العلم أغلى وأشهى؛ لأنَّ

الجهل داء عضال، والجهلة يلوِّثون الهواء بسموم المخدِّرات، ونفايات مصانع الغشِّ، ويمزقون وشائج المحبة في المجتمع بجِراح الغيبة والنَّميمة، والتصرفات الطائشة التي تصدر عنهم. أكرمَ الله سبحانَه وتعالى الإنسانَ بالعلمِ الذي عَرَفَ من خلالهِ الخالقَ، وعرفَ كيفُ يسخِّرُ خيراتِ البرِّ والبَحْر في خدمتِه، والعلمُ يساعدُ الناس على استخدامِ المالِ في إعمارِ الأرضِ بالشكلِ الصحيحِ.

قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: **58/11**].

شرَّفَ الله أهل العلم، وأثنى عليهم في كتابه العزيز: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ} [العنكبوت: **29/49**].

روى أبو داوود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «من سلكَ طريقاً يطلبُ فيه علماً سهَّل الله به طريقاً من طرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضَعُ أجنحتَها لطالب العلم رضا بما يصنعُ، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ له مَن في السموات ومن في الأرض والحيتانُ في جوف الماء، وإن فضلَ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء. وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنَّما ورَّثوا العلمَ فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[84].

قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله — وأجسامهم قبل القبور قبورُ

وأرواحهم في وحشة من جسومهم — وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الشَّافعي رحمه الله:

العلمُ مغرسُ كلِّ فخرٍ فافْتَخر — واحذر يفوتكَ فخرُ ذاك المَغْرس

اعلم بأنَّ العلم ليس يناله — من همُّه في مَطْعَمٍ أو مَلبَسِ

إلا أخو العلم الذي يُعنى به — في حالَتَيْه عارياً أو مكتسي

فاجعَلْ لنفسك منه حظًّا وافراً — واهجُر له طيبَ الرُّقاد وعَبِّسِ

فلعلَّ يوماً إن حضرْتَ بمجلسٍ — كنتَ الرَّئيسَ وفخْرَ ذاك المجلسِ

وقال الإمام الشافعي أيضاً:

تعلَّم فليس المرء يولد عالما — وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإنَّ كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفَّت عليه الجحافل

وإنَّ صغير القوم إن كان عالماً كبيرٌ إذا رُدَّت إليه المحافل

قال العلماء: " طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله ".

قال أبو الأسود: " ليس شيءٌ أعزَّ من العلم، الملوك حكَّام على الناس والعلماء حكام على الملوك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خُيِّرَ سليمانُ بن داوود عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطيَ المال والملك معه"[85].

وقال علي رضي الله عنه لكميل: " يا كميلُ، العلم خيرٌ من المال، العلمُ يحرسك وأنت تحرسُ المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تُنقصه النَّفقة، والعلم يزكو بالإنفاق، وقال: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثُلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلفٌ منه"[86].

وقال أبو قلابة: "مثلُ العلماءِ في الأرض مثلُ النجومِ في السماء، من تركها ضلَّ، ومن غابت عنه تحيَّرَ"[87].

وقال معاذ رضي الله عنه : " تعلموا العلم فإن تعلُّمه حسنة، وطلبَه عبادة، وبذلَه لأهله قربة. والعلم منارُ سبيل أهل الجنة، والأنيسُ في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدِّث في الخَلوة، والدليل على السرَّاء والضرَّاء، والزَّيْنُ عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء.

يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة، تُقتفى آثارهم، ويُقتدى بفعالهم. والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف؛ يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة؛ الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه توصَلُ الأرحام، ويُعرفُ الحلال من الحرام"[88].

" إن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حال تجدُّده فقط، وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص، ويدل عليه أن الطبعَ يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه... وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان؛ فإن لذته في حال بقائه مثلها في حال تجدده"[89].

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: " يا بنيَّ: تعلموا العلم، فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً"[90].

ورحم الله الحكماء إذ قالوا:

بنور العلم يُكشفُ كل ريب	**ويبصر وجهَ مطلبه المريدُ**
فأهل العلم في رحبٍ وقُرب	**لهم مما اشتهوا أبداً مزيدُ**
فإن سكتوا ففِكر في مَعاد	**وإن نطقوا فقولهم سديدُ**

يقول السباعي:" فالأمة التي تستحق الحياة تجدُ غذاءَها في العلم قبل كل شيء. وأمتُنا يومَ كانت تبعث الحياة في الأمم والشعوب كانت تسلُك كلَّ سبيل للتزوُّد من العلم ونشره وإذاعته، بل كان مختلفُ أبنائها من الخليفة إلى العالم والتاجر يتبارون في الاستكثار من أدوات العلم وكتبه وبناء مدارسه، وكانت كما رأيت لا يتحدث فيها إلا بما يزيد في العلم ويفتح الذهن ويصقل العقل، وهم حتى في مجالس سمرهم ولهوهم كانوا علماء أدباء"[91].

العلمُ فهمُ المعاني والغوص بين السُّطور ودلالات الأبجديَّة، فالعلمُ النافع دواء القلوب وضياؤها وشفاؤها. العلم سياجُ الأوطان، وخَفْقُ بنودها، وسروجُ خيولها المسوَّمة، ومَنَعة حصونها، وعزَّة أهلها.

الصَّداقة

الإنسانية قصرٌ شيدَ من زبرجد وياقوت، تحمله أكفُّ الأمواجِ الحانية في عرض البحر، وتباهي بجماله الشمس والقمر. هي ينبوعٌ صاف يتدفَّق في القلوب العامرة فتتفتَّح فيها وردة عاطرة مع كلِّ نبضة. تحوكُ الإنسانية نُبلها قصيدةً جميلة عنوانها الصَّداقة ومضمونها السعادة.

هي الإخاء والمودَّة اللتان تنتظِمان النفوس المتآلفة فتحلِّق في عالم الرَّوعة وتسمو إلى المنزلة التي تليق بالإنسان عندما يصادقُ ويحبُّ؛ أعني منزلة الكواكب والمجرَّات.

الصَّداقة حاجة فطريَّة عند كلِّ إنسان يسعدُ عندما يعيشها، ويتألم عندما يفقدِها.

إن اللحظات التي نحدِّث فيها أصدقاءنا عن نجاحنا وفرحنا لَتفوقُ النجاحَ ذاتَه، ولطالما باحَ الناس بأسرارهم وألْقَوا حمولاتِ همومهم بين يدي أصدقائهم دون أن يعلمَ عنها آباؤُهم أو أشِقَّاؤهم.

يفترُّ ثغرُ الصداقة عن الصِّدق كما يفترُّ ثغرُ الأفق الفسيح عن طُهر الفجر فيتكلَّل بالنور الشَّفيف، ويسافر عبر ذرات النسيم ليحطَّ على الزهور الغافية فيوقظها، ويكحِّل عيونها بقطرات الطلِّ النقيَّة فتصحو باسمة شذية.

ضربَ الأصدقاء أروع الأمثلة في التَّضحية والإيثار فعبَّروا عن صداقتهم أجمل تعبير، وألبسوها أنفسَ الحلل.

تأوي معاني الصَّداقة إلى القلوب الصَّافية كما تأوي البلابل إلى الخمائل الآمنة. وكما تأوي الأنهار والجداول إلى البحار، وكما تأوي طيور السنونو إلى الأعشاش في الفصل المطير.

وقد ورد لفظ الصَّديق في القرآن الكريم لتأكيدِ دور الصداقة ومكانتها في حياة الإنسان. قال تعالى: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ} [الشعراء: **26/100-101**].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله : «ماتحابَّ اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدُّ حبًّا لصاحبه»[92].

وقال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه مايحبُّ لنفسه»[93].

قال فولتير: " أيتها الصَّداقة: لولاك لكان المرء وحيداً، وبفضلك يستطيع المرء أن يضاعف نفسه، وأن يحيا في نفوس الآخرين"[94].

اقترنت الصداقة بالأصالة والنُّبل لأنَّ الذين يحافظون على الصَّداقة هم الذين بوسعهم الحفاظ على تُحف الجمال ونفائس اللآلئ، وثروات أمتهم العلمية والمادية. الصَّداقة ليست كتاباً ندرسه في المدارس، أو قصيدة نحفظها عن ظهر قلب، ولكنَّها قيمةٌ موجودة في ذواتنا تُزهر عندما نسقيها وتذبل عندما نهجرها. وهنا يأتي دور الآباء والأمهات والمربين والأعلام في تعزيز دور الصَّداقة وتبيين آثارها المباركة. الصَّداقة مثل المجد لا تُنال إلا بالتَّضحية ونكران الذَّات.

نِعْمَ الصَّداقة صداقة الكتاب الذي يُعطي ولا يأخذ، ينفع ولا ينتفع، يُؤنس ولا يجلب الملل.

ورحم الله أبا الطيب المتنبي عندما قال:

أعزُّ مكان في الدُّنى سرجُ سابح   وخير جليس في الأنام كتاب

وإليكم هذه القصة (وفكرتها مستوحاة من إيسوب) والتي تعبِّر عن خيبةِ أمل الصديق بصديقه: «يُحْكى أنَّ صديقَيْنِ حَميمَيْن كانا يمشِيان في الغابَةِ، وبينَما هُما يتَبادَلان الأحاديثَ الجميلةَ والمسلِّيَةَ بينَ الدُّروبِ التي تَنْمو على جانِبَيْها الزُّهورُ الملوَّنةُ والأعشابُ الزَّاهيةُ، هجمَ عليهِما نَمرٌ كبيرٌ مفترِسٌ. كانَ الصديقُ الأولُ نحيفَ الجسمِ فتسلَّقَ شجرةً عاليةً ونَجا، ولكنَّ الصَّديقَ الثَّاني كانَ جسمُهُ سميناً فلم يتمكَّنْ مِنَ الهَرَبِ، وسقطَ على الأرضِ مغشيّاً عليه.

اقتربَ النَّمرُ من الشَّخص الذي سقطَ على الأرضِ، وراحَ يَشَمُّهُ ويمرِّرُ أنفَهُ فوقَ وجهِهِ ورأسِهِ وأُذنيهِ، وعندَما وجدَهُ مُغْمى عليهِ تركَهُ، ومَضَى في طريقِهِ.

شاهدَ الصديقُ النَّحيفُ النَّمِرَ قد ولَّى فاقْتَطعَ غُصناً من الشَّجرَةِ، وأَقْبَلَ على صديقه المرمِيِّ على الأرضِ، وهو يقولُ: قُم يا صديقِيَ العزيز، طَرَدْتُ النَّمِرَ، لقد خافَ منِّي، وولَّى هارِباً، هيَّا انهَضْ.

نهضَ الصَّديقُ السَّمينُ، وقال: شكراً لكَ أيُّها الصديقُ الوفيُّ.

فقالَ الصديقُ الجبانُ: ولكنَّني رأيتُ النَّمِرَ يقْتَرِبُ من أُذُنِكَ، وكأنَّهُ يقولُ لكَ شيئاً، فماذا قالَ لكَ؟

أجابَ الصديقُ السمينُ: قالَ لي النَّمِرُ: لا ترافقِ الجبناءَ بعدَ اليَوم.

شعرَ الصديقُ الجبانُ بالخَجَل لأنَّه لم يساعِدْ صديقَه عندما احتاجَ إليه».

الصداقة التي تُبنى على منفعة عاجلة سَرعان ما تتهاوى أركانُها، ويتلاشى أثرُها بانقضاء المصلحة، أما الصَّداقةُ الحقيقيَّة فإنَّها ثابتةٌ ثباتَ الجبال الراسيات، ورحم الله الشاعر عندما قال:

صديقي من يُقاسمني هُمومي	**ويرمي بالعداوة من رماني**

لا تحزن أخيَّ إذا ما أبدى لك بعضُ من تظنُّهم أصدقاء الجفاءَ أو التكلُّف في المعاملة، فالصَّداقة ليست تكلُّفاً ومداراة وهدايا ودعوات إلى الأماكن الفخمة، ولكنَّها انسياب وبساطة وألفة. فتعامل مع هؤلاء بإنسانيتك المعهودة وأخلاقك العالية.

وقال الشافعي رحمه الله:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلُّفا	**فدعْه ولا تُكثر عليه التأسُّفا**
ففي الناس أبدالٌ وفي التَّرك راحةٌ	**وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا**
فما كلُّ من تهواه يهواك قلبُه	**ولا كلُّ من صافيتهُ لك قد صَفا**
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة	**فلا خيرَ في ودٍّ يجيءُ تكلُّفا**
ولا خير في خلٍّ يخونُ خليله	**ويلْقاه من بعد المودَّة بالجَفا**

يا أصدقاء العالم اعلموا أني أحبكم جميعاً.

الوطن

أكتبُ إليكَ وأنت ساكنٌ في قلبي، بل أنت قلبي، وأنت مقيمٌ في أحداقِ عينيَّ بل أنت عيناي. فكيف لا أراك جميلاً نضراً وأنت مادة الإحساس المتألقة في النبض، وينبوع المشاعر المترقرقة في خميلة النفس، وقيثارةُ الروح التي تعزِف الحياة عطاءً وتضحية؟

أنت مرابع الذكريات وبيادرُ الطفولة، وسِفْرُ اللحظات الجميلة.

ما أطهر أرضَك، وما أغلى ترابها! ما أنقى هواءكَ! ما أعطرَ نسيمك!

كيف لا تكون أرضك غالية ونحن نقبِّلها بجباهنا عندما نسجد للخالق عزَّ وجل؟

أنت العطرُ الذي يمنحني الرائحةَ المنعشة المضمخة بعبق الحنان وأريج الأمان وكنه الزَّمان وطهر المكان. أنت كلُّ شيءٍ في عيون من يرونك طفلةً صغيرة تحتاج إلى الرعاية، وجوهرةً نفيسة تحتاج إلى الحراسة، ومقصداً سامياً يتطلب التضحية. ولكم أعجَب من أولئك الذين طمسَ الجفاءُ ضياءَ عيونهم، وقسَّى قلوبَهم طولُ النوى، وحرق الهجرُ أهدابَ الحسِّ في صحراء نفوسهم المجدبة، فراحوا يجرِّحون بأوطانهم، ويركزون على ما في أحداقها الجميلة من قذى متجاهلين الحسن والجمال الذي فيها، والماء الذي سقتهم إياه، والهواء النقيَّ الذي قدَّمته لهم، والبيت الدافئ الذي احتضَنهم عندما كانوا في أمسِّ الحاجة إلى الرعايةِ.

ورحم الله شوقياً الذي قال:

وطني لو شُغلت بالخُلد عنه	**نازعتني إليه بالخُلد نفسي**

وقال:

ويا وطني لقيتك بعد يأس	كأنِّي قد لقيت بك الشَّبابا
وكلُّ مسافرٍ سيؤوب يوماً	إذا رُزق السلامة والإيابا

وطني الحبيب، أنت الجذور الخفية التي تُمدُّ الغراس الزاهية بالحياة، ونسوغُ الأفنان التي تُساعدها على التبرعم لتُثمرَ، أنت مشكاةُ العطاء ونافذة النور ومحط الآمال.

الوطن أم ولكن الأم ليست وطناً لأن الأم هي حِضن لزهور معدودة، ولكن الوطن أم للملايين من البشر وغيرهم من الورود والفراش والسنونو. الوطن أسمى من الحب لأن الحب بلا وطن كأفراخ العصفور من غير عُشٍّ تتجاذبها الريح يمنةً ويسرة. فالوطن غصنٌ مثمر والحب فراشةٌ مزركشة تبحث عن الرحيق وأنى للفراشة أن تحطَّ على غصنٍ يابس؟

قال كاريل: "جميل أن يموت الإنسان من أجل وطنه، ولكنَّ الأفضل أن يحيا من أجل هذا الوطن"[95].

وقال لويس كوسوت: "الوطنيَّة هي ينبوع التَّضحية"[96].

الوطن ليس ذكريات الطفولة، وبيادر الفتوة، ولحظات السعادة، وحضن الأم، وأشجان الشباب، وظل الدالية، وعذوبة مياه الخابية فحسب، ولكنه الراية الخفاقة التي تُظل الحمى، والشمس الوضيئة التي تمنح الدفء للمدى، والقمر الذي يُنير الطريق للسراة في دياجير العَتَمة.

الوطن قرطاسٌ خصب، ويراعةٌ سخيَّة، وسيفٌ مهنَّد، وقلبٌ حنون، وإنسانيةٌ تُحترم، وعدلٌ يُقام، وكرامَة تُصان، وحرية تُمنح، وجانب مُهاب، وقائد يطاع، لأن الوطن هو الحياة.

لم يكن الوطن في يوم من الأيام أحلاماً وأمانيَّ وأشعاراً وذكريات، ولكنه رمزٌ يتمثل في الحضارات التي هي في الحقيقة ثمرةُ الفكر النبيل المستمد من معتقدات تنتظم القلوب وتوحِّد الميول. وما أعنيه في الحضارة هو الحضارة الفكرية والروحية التي تجلب السعادة والتطوُّر، وتحمل في طياتها ابتسامات الشفاه وطمأنينة القلوب وحب الآخرين، ولا أعني- هنا- الحضارة التي تمثَّلت في سور الصين وأبراج بابل فحسب، وغيرها من حضارة الحجر والزَّخارف، ولكنني أعني حضارةَ المعرفةِ والقيم الإنسانيَّة.

ولأن الحب هو الوشيجة التي تؤلف القلوب، أقول: الوطن بيتٌ يضم أسرة متماسكة سعيدة متحابَّة، وغرفة صفٍّ يقودها معلم مخلص يودع في قلوب رياحين الوطن وزهوره أنقى الفكر وأصفى المُثُل، ومدينة يعيش أهلها على اختلاف أعراقهم ومذاهبهم ومعتقداتهم بأمان ومحبة وتسامح.

فإليك يا وطني أؤدي التحية، وأرسل الأشواق المعطرة بشذا الحنين الدافق إلى رباك التي درجت عليها، وترعرعت فوق مروجها، وركضت خلف فراشاتها ونحلاتها، وشربت من جداولها التي تمتلئ بالماء العذب، وتنشَّقت هواءها الشذيَّ، رباكَ التي تعلمتُ فيها حروفَ الأبجدية، ومعاني المحبة والقيم الجميلة. تعلمت فيها كيف يحب الإنسان بني الإنسان.

فإليك يا وطني الحبيب كل حبي، إليك يا دوحةَ الشام الظليلة كل مودَّتي وفاء لكل شيء قدَّمته إليَّ، ودمت عزيزة محفوظة، حرَّة أبيَّة، ودامت رباك محروسة، ورايتك مرفوعة، ومجدك مشرق.

الأُمُومَة

لكم تساءلت عن ماهيَّة أحاسيس الأم، وعن سرِّ جوهر قلبها الرَّفيع، وعن دفء شمسها التي لا تغيب، وروعة أيكها الزَّاهي الذي لا يذبل، وصِدق مشاعرها التي لا تفتُر ولا تَمَلُّ إذ تُفيضُ الحُبَّ من جنباتها ومن باطنها كعين ماءٍ ثَجَّاجة وكمشكاةِ نورٍ وهَّاجة، ولكنني لم أحصل على مُبتغاي، لأنَّ المادَّة التي أبحث عنها تَجِلُّ عن الوصف، وتسمو عن الرؤية، وتَعِزُّ على الكشف، فَهيَ بِنظري عُصارة المبادئ والقيم والمثل مجتمعة، وخلاصة رحيق الزُّهور.

أراها في البخور الذي يحترق لِيَنشر الطيب، وفي الشمعة التي تذوب لتبدد الظلام، وفي الجسد الذي يتألَّم لِيَهَبَ السَّعادة للآخرين وفي السَّحابة التي تُمزِّق نفسها، وتُبدِّدُ خيوطها لتروي الأقاحي العطشى. إنها البدر المكتمل الذي تقتطعُ الليالي والأيام من كبده القطعة تلو القطعة حتى إذا ما تَلاشى عادَ لِيَنسُجَ خيوطَ ضيائه من جديد لِينير دروب المسافرين في أحضان الدفء والمُدلجين في رحاب الفضيلة.

الأمومةُ عطاء مع العناء، وسَخاء مع الابتلاء، وتضحيةٌ مع الرجاء. الأمومة فيها بَصمة من النُّبوة تتجسَّد في الرِّضا الداخلي عن الولد العاق، وفيها أثرٌ عظيم من آثار رحمة الخالق عزَّ وجل في حُنُوِّها على وليدِها، تلكُم الصورة النبيلة التي تمثِّل أنقى صُور التَّضحية، وأعلى مراتب الحب.

وإذا ما أمعنتَ النظرَ في باطن الأمومة المفعَم بالشوق إلى الحنان والبنوَّة وجدت أن ثغرَها يَفترُّ عن الأنوار افترارَ الرحيق عن الزَّهر الذي كأنما يَنْفَحُ من الجنَّة، وافترار النَّدى عن نسيم الصَّبا الذي يُفعِمُ كل ما حوله عِطراً، ولوجدتَ أنَّها سَيلٌ عاشقٌ يعتلي صهوةَ الأرض فَيقَبِّل التراب وأكمام الزَّهر.

الأمومة ألوانٌ جميلة متعددة تفوقُ عددَ تلك التي في الرياض والخمائل، فهي كالشاعر الذي يَتَنقَّل بين أفنان اللغة تنقُّل العصفور ما بين الورود فَيَقطِفُ من هنا زهرة ومن هناك يتأمَّل صورة ويستوحي فكرة.

فللأمومة في كل يوم طعمٌ جديد ولون جذاب مختلف فَهي ماءُ نهرٍ جارٍ، وينبوع ماء لا يُكرِّر ولا يسترجع القطرات التي يَهَبُها للأرض العطشى. الأمومةُ أصلٌ والأبوَّة صورةٌ عنها لأن الأمومةَ مهامسةٌ للمحبوب وملامسَةٌ له إذ تَختَلِطُ الأم وتمتَزج مع جنينها مخالطة الشذا للورد فَتدخل في نِقْي عظامه وفي بؤبؤ عينيه، وتسكنُ شغاف قلبه وتحوكُ أنسجة جلده وكريات دمه بقدرة الله.

هذا في العالم الجوَّاني، أما إذا ما انفصلت العروة، وانسَلَّ السنا من شفة الشمس، وأفلَتَ الضياءُ من وجه القمر، وتفتَّق الزهر عن الغصن، وانبجس الماء من الرابية، وتفجَّر الينبوع من الخميلة فَإنَّ ربيع الحُبِّ سَيُنشِدُ أنشودة العشق، ويملأ أديم البشارة بأنواع الزهر أبيضه وأصفره وأحمره.

فالأبوَّة أشبه بمن يقرأ مقالةً عن الرَّبيع أما الأمومة فهي الربيع ذاته. الأبوة أشبه بقصيدة آسرة، ولكن الأمومة هي نِقاط القصيدة وحروفها ورويها وقافيتها وهي أيضاً بحرها وشاطئها.

يَفرحُ الأب بِقدوم المولود فَرَح المزارع بموسم الحصاد وفَرَح التَّاجِر بِربح الصفقة ولكنَّ الأم تَفرحُ بمولودها فَرَح الحبيب بِلقاء محبوبه، وفَرَح الأرض بعناقِ الغيث، وتسعَد سعادةَ البلبل الذي فُتِح له باب القفص وراح يُرفرف فوق أرجاء البساتين والروابي.

إنَّ شميمَ مولودها لا تَعدِلُه رائِحةُ أجود الورود والمسك والبخور، إنَّها رَجْعُ عَرف الجَنَّة ونقاءُ ماء الكوثر.

الأمومةُ عِقدُ الفرح والأمن الذي ينتظم قلوب الأبناء، والمدرسة الأولى التي ينهلون من معينها معاني العطاء والحب والمودة والتضحية والإيثار فهي معلمٌ لا يَكِلُّ ولا يمَلُّ ففي النَّهار تروي الظمأى، وترضع الجوعى، وتُصلح المتخاصمين، وتجبرُ خاطر الحزانى ولا يشغلها ذلك عن طاعة ربِّها وتسبيحه ولا تنسى مع ذلك أن تسقي الزهور والنباتات البيتيَّة التي في المنزل.

وإذا ما جنَّ الليل وحَطَّ الكرى على الأهداب البريئة بدأ درس جديد يتمثل بتعديل الرؤوس التي غادرت الوسائد، وتغطية الجسوم التي هربت من ثقل الأغطية، وإرواء ظمأ الأكباد

العطشى التي غلبها النوم عن شرب الماء.

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: **17/23-24**].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي : أيُّ العمل أحبّ إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها). قال: ثمَّ أيُّ؟ قال: (ثم برُّ الوالدين). قال: ثمَّ أيُّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) قال: حدَّثني بهن، ولو استزدته لزادني[97].

وإليكم هذه القصَّة التي تجسِّد عظمةَ الأمِّ، وتُظهر مكانتها.

(خصَّصَ أحدُ الملوك إكليلاً من الذهب ليقدمه جائزة لأعظم عمل يقوم به أحد أفراد رعيَّته. وذات يوم مثل أمامه شاعر ورسَّام وعالم. تقدَّم الشاعر فأنشد أمام الملك قصائد من روائع شعره. وبعده جاء الرسام الذي عرض أمامه لوحاته الفنية ورسومه الجميلة وخطَّه البديع. وأخيراً جاء العالم وهو يحمل كتبه ويشرح للملك بعض اختباراته وتجاربه ويوضِّح له الاكتشافات والاختراعات التي توصَّل إليها في أبحاثه. وفي النهاية ظهرت امرأةٌ كلَّل الشيبُ شعرها، فسألها الملك: ما لديك أيتها العجوز؟ وما عندك لتقدميه؟

أجابت العجوز: إن الذين مثلوا أمامك أيها الملك هم أولادي، وقد جئت لأرى من منهم ينال الجائزة، ويحظى بتاج الذهب.

هتف الملك على الفور: ضعوا التاج على رأس هذه السيدة صانعة هؤلاء الرجال العظماء)[98].

قال الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها — **أعددت شعباً طيِّب الأعراق**

الأم روض إن تعهَّده الحَيا — **بالريِّ أورقَ أيَّما إيراقِ**

الأم أستاذ الأساتذة الألى — **شغلت مآثرهم مدى الآفاق**

وقال معروف الرَّصافي:

أوجب الواجبات إكرام أمي	**إنَّ أمي أحق بالإكرامِ**
حملتني ثقلاً ومن بعد حملي	**أرضعتني إلى أوان فطامي**
ورعتني في ظلمة الليل حتى	**تركت نومها لأجل منامي**
فلها الحمد بعد حمدي إلهي	**ولها الشكر في مدى الأيام**

رحم الله الشاعر الذي قال:

الأم ريحانة الدُّنيا وبهجتها	**هيهات ألقى كقلب الأم هيهاتا**

قال ماري هوبكنز: (الأمومة أعظم هبة خصَّ الله بها النساء)[99].

بيتشر: (قلب الأم مدرسة الطفل)[100].

جبران خليل جبران: (وجه أمي وجه أمتي)[101].

الأمومة حياة جميلة نقيَّة، ومعان سامية، وسعادة أصفى من الماء الزلال على اللجين. الأمومة طريقٌ مفروشة بالورد إلى الجنَّة والقيامُ بواجب الأم وبِرِّها على الوجه الأكمل فضيلةٌ عظيمة وعبادة مجزئة لا يدركها إلا أصحاب القلوب العامرة بالإيمان والأنفُس التي انسكبت في أرواحها كؤوس الأفهام. البِرُّ بالأم عبادةٌ وزلفى إلى الخالق ومرجٌ أخضر يبدأ من ابتسامة الأم وينتهي في الجنة.

العَدْلُ

العدل ربيعُ النفس، وبسمةُ القلب، وجناحا الروح. بالعدل تنتشي الجوارحُ فتطيرُ فرحاً، وتثمر الرضا ومن ثم تجود بالعطاء والإبداع. بالعدل تحيا القلوب، وتسعد النفوس، ويتحقق السكن والوئام.

أنى وُجد العدل وُجِدت الأريحية والمبادرات الجميلة والسكن النفسي. كيف لا، والعدل غذاء القلوب، وبلسم النفوس، وواحة من الجمال ترفرف فيها أجنحة الإبداع بانسياب وفرح؟

العدْلُ ما قام في النفوس أنَّه مستقيم، وهو ضدُّ الظلم والجَور، والعدلُ حاجةٌ فطريَّة عند الإنسان تنشأ معه منذ نعومة أظفاره.

قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: **4/58**].

وقال: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا} [الأنعام: **6/152**].

فالعَدلُ مطلوب من كلِّ إنسان على قَدره، فالوالدان يُنتظر منهما العدل بين أبنائهما، والمعلم يُنتظرُ منه أن يعدلَ بين طلابه، ومدير الشَّركة ينبغي أن يعدل بين موظفيه. وتحقيق العدل يهب الإنسان راحة نفسيَّة وسعادة داخلية كبيرة يستمدُّها من ردَّة فعلِ من عدلَ بينهم صغاراً كانوا أم كباراً.

ولا يذهب الظنُّ بأنَّ العدل مرتبطٌ بالماديَّات فحسب، بل إنه يرتبط بالأمور المعنويَّة بشكل كبير؛ فالعدل في المحبَّة بين الأبناء مطلوب وضروريٌّ من أجل نجاح عمليَّة التنشئة الصالحة.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: "العدل جنَّة المظلوم، وجحيم الظالم".

وقال دوكلابيه: "لن تكون عادلاً مالم تكن إنساناً".

وعندما سرقت المرأة المخزومية وبلغ الخبر رسول الله ، غضب وأمر بعقوبة هذه المرأة مما أثار حفيظة قومها فراحوا يقدحون أفكارهم للخلاص لعلهم يفتحون ثغرة، أو يجدون سبيلاً للحيلولة دون تنفيذ قرار العقوبة وأنى لهم!

لقد ضاقت الدنيا ذرعاً بأسرة مخزوم التي تحاول أن تتخلص من الفضيحة التي ستلحق بها بين الناس إذا ما نُفِّذت عقوبة السرقة في حق امرأة منهم. واستمر البحث المضني والقلق القاتل إلى أن قال قائل: لِمَ لا تطلبون من أسامة بن زيد حِب رسول الله أن يشفع للمرأة عنده؟ فتنفس القوم الصعداء ولامس هذا الاقتراح أمانيهم الواعدة ولاقى عندهم صدى جميلاً. هل سيشفِّع الرسول الكريم أسامة ويلوي عنق العدالة قليلاً ليُرضي آل مخزوم؟

هل سيرقُّ قلب النبي على هذه المرأة؟ أسئلة تتردد، وآمال تتجدد وتنبؤات كثيرة أصبحت شغل الناس الشاغل.

لقد قبل أسامة عرض بني مخزوم في الشفاعة عند رسول الله ظناً منه أن النبي سيشفِّعُه ويتجاوز عن المرأة، وغاب عن ذهن أسامة في حينها أن المرأة تجاوزت حداً من حدود الله، وأنها سلبت شيئاً ليس من حقها. جاء أسامة إلى النبي وخلفه حشود محتشدة تنتظر نتيجة اللقاء الحاسم. دخل أسامة وقدَّم عرضه بين يدي رسول الله ، وما إن انتهى حتى فاجأه رسول الله بعبارة افتُلذت من جوهرة العدالة ومن لؤلؤة الإنصاف، عبارةٌ عطَّرت الدنيا، وأثلجت صدور ناشدي الحقيقة، والإنصاف والعدالة.

ماذا قال ياترى؟ قال: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

ياللروعة، ويااللجمال، وياللعدالة التي سمت وأورقت وأثمرت من كلمات خير البرية محمد !

ورحم الله أبا جعفر أحمد بن ليون التجيبي عندما قال:

العدل روح به تحيا البلاد كما   **هلاكها أبداً بالجور ينحتمُ**

الجور شينٌ به التعمير منقطعٌ	**والعدل زينٌ به التمهيد ينتظم**

وقال معروف الرصافي:

يا عدلُ طال الانتظار فعجِّلِ	**يا عدْلُ ضاق الصَّبر عنك فأقبلِ**
يا عدْلُ ليس على سواك معوَّل	**هلا عطفت عن الصَّريخ المعْولِ**

إن العدالة لتصبح عجينة مرنة ووردة سهلة المنال أمام رجل عظيم كمحمد بن عبد الله الذي يعتبرُ جميع الناس في ناظريه سواء.

وما أروع موقف رسول كسرى عندما جاء يحمل رسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفوجئ عندما رآه نائماً تحت شجرة الدوح، وقد كان يظنُّ أن عمرَ يسكنُ قصراً فارهاً، كقصور كسرى، ورحم الله الشاعر المطبوع حافظ إبراهيم الذي عبَّر عن الموقف أحسن تعبير فقال:

وراع صاحبَ كسرى أن رأى عمراً	**بين الرعية عطلاً وهو راعيها**
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً	**ببردة كاد طول العهد يبليها**
وعهده بملوك الفرس أن لها	**سوراً من الجند والحراس يحميها**
رآه مستغرقاً في نومه فرأى	**فيه الجلالة في أسمى معانيها**
فقال قولة حق أصبحت مثلاً	**وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها**
أمنت لما أقمت العدل بينهم	**فنمت فيهم قرير العين هانيها**

ومن أروع ما قرأت في العدالة قصة الخلاف بين اليهودي وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه على الدرع، إذ تنازع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أميرُ المؤمنين مع يهودي على دِرع لعلي رضي الله عنه ، فاحتكما إلى القاضي شريح بن الحارث الكندي، الذي قال: يا

أمير المؤمنين هل من بيِّنة؟ قال: نعم، الحسنُ والحسين يشهدان أنَّ الدِّرع درعي، قال شريح: يا أمير المؤمنين شهادةُ الابن لا تجوزُ، فقال علي رضي الله عنه : سبحان الله! رجلٌ من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ سمعت رسول الله يقول: الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة. فقال اليهودي: أميرُ المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقط منك ليلاً. فأهداه أمير المؤمنين الدرع.

وقال الشعبي: كنت جالساً عند شريح القاضي إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاءً شديداً، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة مأخوذاً حقها، قال: وما علمك؟ قلت: لشدة بكائها وكثرة دموعها. قال: لا تفعل إلا بعد أن تتبيَّن أمرها، فإن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون.

وحادثة عمر بن الخطاب مع ابن عمرو بن العاص والقبطي، وقولته الشهيرة: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

وحادثة جبلة بن الأيهم الأمير الغساني، مع الأعرابي من بني فزارة، عندما ضربه جبلة فهشَّم وجهه لأنه وطئ إزاره عندما كان يطوف حول الكعبة فحلَّه، وحكم عمر رضي الله عنه للأعرابي بالاقتصاص من جبلة، وكيف رفضَ جبلة ذلك، قائلاً: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أمير وهو سوقة؟ فكانت قولة عمر رضي الله عنه الخالدة: "لقد سوى الإسلام بينكما، وفي رواية: قد جمعك وإياه الإسلام، فلا فضل لك عليه في القصاص".

ومما جاء في ذلك في البخاري عن المعرور قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلَّة وعلى غلامه حلَّة فسألتُه عن ذلك فقال: إني ساببتُ رجلاً فعيَّرته بأمه فقال لي النبي : يا أبا ذر، أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[102].

بالعدل تحلو الحياة، وتسعد النفوس، وتسود المحبة.....

بالعدل يتحقق المجد، وترفرف بنود الفخار.....

الإيثار

من أراد أن يرى الإنسانية الصِّرفَ حقيقةً فما عليه إلا أن يُطْلقَ العنان لفضيلة الإيثار في نفسه ويتركَها تحلِّق حرَّة طليقة ليجد نفسه يقتسمُ الرَّغيف مع الجيران، ويمنح كأس الماء الوحيدة لظامئ آخر.

أحسستُ بقيمة الإيثار عندما احتجتُ إلى قلمٍ في قاعة الامتحان وأنا طالبٌ في الثانويَّة، فقال المعلم: من معه قلم زائد فَلْيُعطه زميله؟ فأجاب أحدُ الطلاب: أنا يا أستاذ، ثمَّ أعطاني القلم. وبعد دقائق سأل المعلم الطالب:كيف تعطي قلمك، وأنت ليس عندك البديل؟ فقال الطالب: أنتظر زميلي حتَّى ينتهي...نتشارك معاً على قلم واحد.

لقد ملأ هذا الموقف كياني بالمحبَّة والفرح... وأعدتُ القلم لزميلي، وأخذت قلم المعلم الذي يراقبنا في القاعة، كانت لحظات لا أنساها ما حييت.

وعندما قرأت السِّيرة النبويَّة، وسِيَرَ الصحابةِ والتابعين، وأئمَّة المذاهب المشرقة الذين عاشوا الإسلام حقيقة وليس صورةً، ألفيتهم قد عبَّروا عن الإسلام أحسن تعبير فكانوا يحكون الإيثار سجية رائعة، وكانوا وسطيين محبِّين لجميع بني الإنسان على إطلاق العبارة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله : «اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له ، فوجدَ الرجلُ الذي اشترى العقار في عقارِه جرَّةً فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خُذ ذهبَك مني، إنما اشتريتُ منك الأرضَ، ولم أبتَع منكَ الذهب. وقال الذي له الأرضُ: إنما بعتُكَ الأرضَ وما فيها، فتحاكَما إلى رجلٍ ، فقالَ الذي تحاكَما إليه : ألكُما ولد؟ قال أحدُهما: لي غلامٌ، وقالَ الآخرُ: لي جارية، قالَ: أنكحوا الغلامَ الجاريةَ، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدَّقا»[103].

لو أدرك الناس في جميع أنحاء العالم مقاصد الإسلام السامية، التي هي إنَّما تعود عليهم بالسعادة والاستقرار النفسي، لاعتنقوه، ولتمثَّلوه عقيدةً وسلوكاً وفكراً.

ولو أدرك دعاة التحرُّر – على إطلاق العبارة– والانفلات لذَّة السَّكن النَّفسي الذي ينعَمُ به المسلمون الحقيقيون، الذي إنما هو رحيقُ العبادة، لجابوا القِفار والتلال، ولتجشَّموا المصاعب في سبيل معرفة أركان هذا الدين وآدابه، ورياضه الزاهرة.

الإسلامُ حياةٌ سعيدةٌ بما يحمل في طياته من سُموٍّ في العلاقات، ونُكرانٍ للذَّات، وانخراطٍ في الجماعة.

إن حياةً يُؤْثِرُ الناسُ فيها غيرهم على أنفسهم، لهي حياةٌ سعيدة بكل المقاييس والمعايير؛ لأن القيم المتبادلة هي غذاء الروح الشفيفة، والنفس الرهيفة.

جاء الإسلام بأخلاق الإيثار والتضحية، وليس غريباً؛ لأن الإسلام دين النبل والإنسانية والنقاء، إذ تجد المعاني الجليلة مشعة في كل سطر من سطوره وفي كلِّ حُكم من أحكامه، قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: **59/9**].

وفي الحديث، قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[104].

كانت صور الإيثار تستهويني وتشدُّني، فقرأت الكثيرَ من صور الإيثار في قصص الأدب العالمي؛ الإنجليزية والهندية والرومانية والعربية فلم أجد أجمل من موقف النبي مع الجارية الصَّغيرة وهو يَضرِبُ أروع الأمثلة في الإيثار، وحُبِّ الآخرين، وهذه سجيَّة من سجاياه الحميدة – – تلازمه ملازمة المشرق لطلوع الشمس، وملازمة النور للقمر.

إنها مواقف كثيرة سأستعرضُ منها موقفاً، والبلاغة في الإيجاز، تبدأ أحداث هذا الموقف عندما اشترى النبي – – قميصاً من أحد الحوانيت، ولدى خروجه استوقفه رجلٌ من الأنصار؛ فخاطبه قائلاً: يا رسول الله، اكسُني هذا القميص.

فلم يتردَّد النبي في خلع القميص، وإعطائه للرجل الذي طلبه.

عاد النبي من جديد؛ فاشترى قميصاً آخر، ولم يبقَ معه سوى درهمين، وعندما خرج من الحانوت إذا بجاريةٍ (خادمة) تبكي؛ فقال: لماذا تبكين أيتها الجارية؟ قالت: أعطاني أهل البيت الذين أعمل عندهم درهمين؛ لأشتري لهم طحيناً؛ فأضعتُ الدرهمين.

فقال لها النبي الرحيم صاحب القلب الرقيق والنفس السمحة واليد الحانية: «خُذي هذين الدرهمين وعودي لأهلك».

ذهبت البنت تحمل الدرهمين وهي تبكي فتبعها النبي مسائلاً إياها: ولم تبكين؟ قالت: أخشى أن يضربوني. فقال: لا عليك، وذهب معها النبي إلى حيثُ تعمل فسلَّم على أهل البيت، وأخبرهم بقصَّة الخادمة، فسعِدوا كثيراً بقدوم النبي إليهم، وإكراماً لقدومه أعفَوا أمَتَهم الخادمة من العمل لتصبح حرَّة طليقة.

هذه لمسةٌ حانية، وومضة من ومضات الإنسانية، التي إنما تستمدُّ قيمتها ونورها من تشريع الإله العزيز الحكيم، الذي ارتضى محمداً رسولاً ومبلِّغاً لهذه الرسالة السماوية السمحة، التي إنما تحمل في طيَّاتها ترياقَ النفوس، وبلسمَ الأرواح، ونورَ الأفهام. فما أجمل أن نمنح الآخرين النَّجاح والفرح!!

ما أنبل أن تتأخَّر خطوة في السباق لتجعل أخاك يفوز!

وما أبلغ قصَّة إيثارِ النمريِّ في هذا المقام، وأصل القصَّة أن رجلاً من النمر بن قاسط صحبَ كعب بن أمامة، وفي الماء قلَّةٌ، فكانوا يشربون بالحصاة، وكان كلما أراد كعبٌ أن يشرب نظرَ إليه النمريُّ فيقول كعبٌ للساقي: اسقِ أخاكَ النمريَّ، فيسقيه، حتى نفدَ الماء، ومات كعب عطشاً.

ما أحوجَنا إلى الإيثار في هذا الزمن الصَّعب الذي طَغَت فيه المنافع العاجلة على المعاني الفاضلة، وباتَ الشقيقُ لا يهتمُّ بأمر شقيقه!

ما أحوجَنا إلى نفحةٍ من نفحات الإيثارِ لنعيش سعداء متعاونين متحابين!

استراحة القارئ

* قيل: إنَّ المتوكل رمى عصفوراً فلم يُصبه وطار، فقال له ابن حمدان: أحسنتَ. فقال له المتوكل: كيف أحسنت؟

قال ابن حمدان: أحسنت إلى العصفور.

* دخل أبو دلامة يوماً على المنصور، وبين إصبعيه خرقة بيضاء جُعلت كاللفافة الصغيرة، فقال له المنصور: ما خبرك يا أبا دلامة؟

قال أبو دلامة: ولدت لي صبيَّة البارحة، وقد قلت فيها:

فما وَلَدتكِ مريمُ أم عيسى ... ولم يكفَلكِ لقمانُ الحكيمُ

ولكن قد وُلدتِ لأمٍّ سوءٍ ... يقومُ بأمرها بعلٌ لئيمُ

فضحك المنصورُ وقال: والآن ماذا تريد يا أبا دلامة؟

قال: ملءَ هذه الخُريقَة دنانير ودراهم أستعينُ بها على تربيتها.

فقال المنصور: لك ملؤها دراهم.

ففتحها فإذا هي رداء كبير رقيق لُفَّ بعناية حتى تضاءل حجمُه، ولمَّا مُلئَ استوعب نحو عشرة آلاف درهم.

* استأجر رجلٌ داراً للسَّكَن وكانَ خشبُ السقف قديماً بالياً فكان يتفرقعُ كثيراً، فلما جاء صاحب الدار يطالبُه الأجرة قال له: أصلح هذا السقف فإنه يتفرقع!!.

قال: لا تخَف، ولا بأس عليك فإنه يسبِّح الله.

فقال له: أخشى أن تدركه الخشيةُ فيسجد.

الأصمعي والطاووس:

مشى الطاووس يوماً باعوجاجِ	**فقلَّد شكل مشيته بنوه**
فقال: علام تختالون؟ قالوا:	**بدأتَ به ونحن مقلِّدوه**
فخالف سيرك المعوجَّ واعدل	**فإنا إن عدلت معدِّلوه**
أما تدري أبانا كل فرعٍ	**يجاري بالخطا من أدَّبوه**
وينشأ ناشئُ الفتيان منا	**على ما كان عوَّده أبوه**

البخيل القانع:

البخيل: إني أفطر وأتغدَّى بكِسْرة خبز، وأفترضُ أنني أفطرتُ بطبقٍ من الفطير وتغدَّيت بدجاجة محمرة.

صديق البخيلِ: وبأي شيء تتعشى؟

البخيل: عجباً لك؟ أيشتهي العشاء من يفطر بطبق من الفطير ويتغدى بدجاجة محمرة؟!!

جواب مسكِّت:

سأل أحد الثقلاء بشَّار بن برد قائلاً: ما أعمى الله رجلاً إلا عوضه، فبماذا عوضك؟

فأجاب بشار: عوضني الله بعدم رؤية أمثالك.

* وقف أعرابي معوجُّ الفمِ أمامَ أحدِ الوُلاة فألقى عليهِ قصيدةً في الثَّناءِ عليه التماساً لمكافأة، ولكنَّ الوالي لم يعطِهِ شيئاً وسأله: ما بال فمك معوجاً؟ فرد الشاعر: لعله عقوبة من الله

لكثرة الثناء بالباطل على بعض الناس.

* كان أحد الأمراء يصلي خلفَ إمام يطيل في القراءة فنهره الأميرُ أمام الناس وقال له: لا تقرأ في الركعة الواحدة إلا بآية واحدة فصلى بهم المغرب، وبعد أن قرأَ الفاتحة قرأ قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ} [الأحزاب: **33/67**].

وبعد أن قرأ الفاتحة في الركعة الثانية قرأ قوله تعالى: {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيرًا} [الأحزاب: **33/68**] ، فقال له الأميرُ يا هذا: طوِّل ما شئتَ، واقرأ ما شئت، غير هاتين الآيتين.

- سأل رجل الشعبيَّ: إذا أردت أن أستحمَّ في نهر فهل أجعل وجهي تجاه القبلة أم عكسها؟

قال الشعبي: بل باتجاه ثيابك حتى لا تسرق.

- وسأله حاج: هل لي أن أحكَّ جلدي وأنا محرم؟

قال الشعبي: لا حرج.

فقال: إلى متى أستطيع حك جلدي؟

فقال الشعبي: حتى يبدو العظم.

الحجاج والأعرابي:

كان الحجاجُ بن يوسف الثَّقفي يستحم بالنهر فأشرف على الغرق فأنقذه أحد المارة وعندما حمله إلى البر، قال له الحجاج: اطلب ما تشاء فطلبك مجاب.

فقال الرجل: ومن أنت حتى تجيب لي أيَّ طلب؟

قال: أنا الحجاج بن يوسف الثقفي.

قال له الرجل: طلبي الوحيد أنني سألتك بالله ألا تخبر أحداً أنني أنقذتك.

لباقةٌ وظَرف:

يُحْكى أنَّ ملِكاً اشتدَّ به المرضُ، وعندَما حَضَرَ الحكيمُ ليُعالِجَهُ، قالَ لَهُ: ثِمارُ الزَّعْرورِ تشفيكَ منَ المرضِ بإذنِ الله.

أجابَ الملكُ مُسْتَغْرِباً: ولكنَّنا الآنَ في فصلِ الشِّتاءِ، وثمارُ الزَّعْرورِ تنضَجُ في الصَّيْفِ، فكيفَ لي أن أحصُلَ عليها؟

قالَ الملكُ: اطلُب من حاشِيَتِكَ أن يَبْحَثوا عنها؛ لعلَّهم يجدونَ شخصاً قد ادَّخَرَ ثَمَرَ الزَّعرورِ.

جمعَ الملكُ حاشيَتَهُ، وطلبَ منهُمْ أن يُخصِّصوا مكافأَةً قَدْرُها ألفُ دينارٍ لِمَن يكونُ لَدَيْهِ صاع من زَعْرورٍ.

نَشَرَ حاشيةُ الملكِ الخبرَ في أرجاءِ البلادِ حتى سَمِعَ بهِ البعيدُ والقريبُ.

ذاتَ يومٍ وبينَما كانَ شابٌّ يمشي في أحدِ البَساتينِ إذ عثَرَ على سلَّةٍ من القَشِّ مغطَّاةٍ بأوراقِ الأشجارِ تحتَ إحدى أشجارِ الزَّعرورِ. حملَ الشابُّ السلَّةَ، فوَجَدَها مَلْأى بثمارِ الزَّعْرورِ.

سَعِدَ الشابُّ، وتوجَّهَ نحوَ قَصْرِ الملكِ حامِلاً مَعَهُ بِشارةً غاليةً طالمَا انتظَرَ الملكُ سماعَها.

سُرَّ الملكُ بذلكَ، ونادَى الحكيمَ من فَورهِ، فَحضَّرَ الحكيمُ العلاجَ. تناوَلَ الملكُ الدَّواءَ، ولَمْ تمضِ سوى أيامٍ قليلةٍ حتَّى شَعَرَ الملكُ بالتَّحَسُّنِ.

عندئذٍ طلبَ الملكُ أن يحضُرَ إليهِ الشابُّ. حَضَرَ الشابُّ فَشَكَرَهُ الملكُ، وأَثْنى عَلَيْهِ، وأعطاهُ ألفَ دينارٍ، ولكنَّ الشابَّ ردَّ المبلغَ إلى الملكِ.

تعجَّبَ الملكُ والحاضِرونَ، ثمَّ قالَ الملكُ للشابِّ: إذا كنتَ تريدُ زيادةً فأنا مستعدٌّ لإعطائِكَ ضِعْفَ المبلغِ.

أجابَ الشابُّ بأَدبٍ جمٍّ: أريدُ منكَ قارورةَ مسكٍ فقط أيُّها الملكُ.

أجابَ الملكُ مستغرباً: ولِمَ تريدُ قارورةَ مِسكٍ يا أيُّها الشابُّ؟

قالَ الشابُّ الخلوقُ: أريدُ أن آخذَ قارورةَ المسكِ، وأعطِّرَ بها الشَّجَرَةَ لأنَّها عرَّفَتْني بِكَ.

فوجِئَ الملكُ من لباقةِ الشابِّ وحُسْنِ أخلاقِهِ، وعيَّنه مستشاراً لهُ في القَصْرِ.

الحجاج والسكارى الثلاثة:

أحضر رجالُ الشرطة للحجاج بن يوسف الثقفي في إحدى الليالي ثلاثةَ شباب من السكارى فنظر الحجاج إليهم ووجدهم يختلفون عمَّن سبقهم من العُصاة السكارى إذ إنهم كانوا ذوي لباس أنيقٍ حَسَن، وتبدو عليهم آثار النعمةِ والكرم والأصل والطيب والأدب، فقال الحجاج للشاب الأول: من أنت؟ وابن من أنت؟

فقال الشاب:

أنا ابن من دانت الرقاب له ... **ما بين مخزومها وهاشمها**

تأتيه بالرغم وهي صاغرة ... **يأخذ من مالها ومن دمها**

فقال الحجاج للشرطة: اتركوه حتى الصباح فلربما أن يكون أحدَ أقارب الخليفة. وقال للثاني: من أنت؟ ومن أبوك؟

فأجاب الثاني:

أنا ابن الذي لا تنزلُ النار قدره ... **وإن نزلت يوماً فسوف تعود**

ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... **فمنهم وقوف حولها وقعود**

فقال الحجاج لرجال الحرس: اتركوه حتى الصباح، فلربما يكون من أقارب حاتم الطائي أشهر كرماء العرب الأقدمين.

ثم نادى الثالث وسأله فأجاب:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بسيفه ... **وعالجها بالحزم حتى استحلَّت**

يروح ويغدو ناشراً لعجاجها ... **وإن ما بدا خلف الصفوف تولَّت**

فقال الحجاج للشرطة: اتركوا هؤلاء الثلاثة، ثم أحضروهم لي في الصباح لنرى ما في أمرهم. وفي الصباح صحا السكارى وعاد إليهم رشدهم، ولما مثلوا أمام الحجاج قال للأول: فسِّر أيها القائل: (أنا ابن من دانت الرقاب له) من أنت؟ فقال: إن أبي حجَّام، والحجّام يأخذ من مال الناس ومن دمهم.

أما الثاني فقال: إن أبي صاحب مطبخ ومطعم والناس حوله قيام وقعود.

أما الثالث فقال: أبي صاحب محل للغزل والنسيج، يرتب خيوط القطن، ويصفها وينظمها فضحك الحجاج ضحكة عالية وعرف أن هؤلاء الشباب قد أنقذهم أدبهم من القتل، فنظر إلى الحراس وقال لهم:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا	**يغنيك محموده عن النسب**
إن الفتى من يقول ها أنذا	**ليس الفتى من يقول كان أبي**

أشعب والحارس:

يُحْكَى أَنَّ أَحَدَ الأُمَراءِ دَعا الْعُلَماءَ والشُّعَراءَ إلى وَليمَةٍ كَبيرَةٍ، فَحاوَلَ أَشْعَبُ الدُّخولَ وَلكِنَّ حارِسَ الْقَصْرِ مَنَعَهُ. عِنْدَئِذٍ فَكَّرَ أَشْعَبُ بِطَريقَةٍ ذَكيَّةٍ للدُّخولِ، فخَلَعَ إِحْدى نَعْلَيْه، وَخَبَّأَها تَحْتَ إِبِطِه، ثُمَّ تَوَجَّهَ نَحْوَ الحارِسِ، وَعِنْدَما حاوَلَ الحارِسُ مَنْعَهُ مِنَ الدُّخولِ، قالَ أَشْعَبُ: نَسيتُ إِحْدى نِعالي في الدَّاخِلِ، فَسَمَحَ لَهُ الْحارِسُ، وَدَخَلَ أَشْعَبُ، وَجَلَسَ على إِحْدى الْمَوائِدِ، وَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ، ثُمَّ خَرَجَ.

أشعب وصديقه:

ذاتَ مرَّةٍ نزلَ أشعبُ عندَ صديقٍ لهُ، فقدَّمَ لهُ صديقُهُ أربعةَ أرغفَةٍ، وذهبَ ليأتيَهُ باللَّحْمِ، وعِندَما رَجَعَ وَجَدَ أنَّ الأرغِفَةَ قَدْ أُكِلَت، عِندئذٍ همَّ أشعبُ بالرَّحيلِ فسألَهُ صديقُهُ: إلى أينَ أَنتَ ذاهِبٌ؟ أجابَ أشعبُ: أنا ذاهبٌ إلى المدينةِ لأُداويَ مَعِدَتي عندَ طبيبٍ حاذِقٍ هناكَ. فقالَ لهُ صديقُهُ: إذا أَصْلَحْتَ مَعِدَتَكَ لا تَجْعَلْ رُجوعَكَ عَلَيْنا.

من أروع ما قيلَ في شعر الطفولة لبدوي الجبل:

وسيمٌ من الأطفالِ لولاه لم أخَف	**على الشَّيب أن أنأى وأن أتغرَّبا**

تودُّ النجومُ الزُّهْرُ لو أنَّها دُمىً ... ليختارَ منها المترَفاتِ ويلعَبا

ويغضبُ أحياناً ويرضى وحسبُنا ... من الصَّفو أن يرضى علينا ويغضَبا

كزغب القطا لو أنَّه راحَ صادياً ... سكبتُ له دمعي وقلبي ليشربا

وأفرشُ أجفاني غطاءً يظلُّه ... ويا ليتَّها كانت أحنَّ وأحدبا

ينامُ على أشواقِ قلبي بمهده ... حريراً من الوَشيِ اليماني مذهَّبا

يزفُّ لنا الأعيادَ عيداً إذا خطا ... وعيداً إذا ناغى وعيداً إذا حبا

ويارب من أجل الطفولة وحدها ... أفض بركات السِّلم شرقاً ومغربا

وصن ضحكة الأطفال يا رب إنها ... إذا غرَّدت في ظامئ الرمل أعشبا

حُسْنُ الخُلُقِ

تتفاضل الزهورُ برائحة العطر، ويتفاضَل الشعراء باتِّساع الخيال وحُسن توظيف الأبجدية، ويتفاضل العلماء بسَعة المعرفة، وتتفاضل الغيدُ بالحُسن والحسب والدين ويتفاضَل الرجال بمكارم الأخلاق.

وإن أشدَّ ما يؤثر في الناس ويستحوذُ على إعجابهم جمال الخلق الذي يزين الإنسان بتيجان المهابة، وروعة السَّمت الرائق.

يرفع حُسن الخلق أناساً ليسوا من أهل الثراء والحسب، ويضعُ سوء الخلق آخرين يتقلَّبون في النعيم، وينحدرون من أنبل الأصول وأشرفها.

إنَّ تأثير الكلمة الطيبة والبسمة الصافية واللقاء المفعم بالروحانية أبلغ في قلوب الناس من خطب السلاطين الرنَّانة، ومن ولائم المترفين العامرة، ومن مجاملات الزعماء.

جُبلت النفوس على الخير فلا تتقبَّل غيره، وطُبعت على المحبة والبساطة فلا تألف سواهما.

إن حسن الخلق فيضٌ رباني يملأ الخالق به نفوس الأصفياء، ونفحة علوية يهبُها لمن يحب من خلقه.

يزيِّن الناس مجالسَهم بأحاديث أهل الخلق الحسن، ويتناقلون مواقفهم الرائدة كما تتناقل النَّسمات الرقيقة شذا الورد.

تكتسي الدنيا بالروعة من إشراقات نفوسهم، وتصفِّق السحب فرحة بمرآهم فتجود بالغيث النافع.

يعزف أصحاب الخلق ألحانَ النُّبل على أوتار الخير فتشدو عصافير المحبة وتتراقص بين يدي الخمائل كما تتراقص الأشرعة بين يدي المراكب التي تقلُّ القلوب المشتاقة.

طابَ لهم علوٌّ نفوسهم التي تتربع فوق الجوزاء، فتنافسُ القمرَ بالسُّطوع والجمال، والشمس بالدفء.

إن ما يملكُه أصحاب الخلق لهو أنفسُ من الياقوت والألماس. كيف لا يكون نفيساً وهو غذاء للروح التي هي جوهر الحياة، وغذاء للوجدان الذي هو مسكُ النفس؟!!

إنه لنفيس حقاً؛ لأنه بلسمٌ يشفي بإذن الله، ووشيجة تؤلف بين القلوب، وشجرة ممتدة الأغصان تظل العابرين.

قال في الحديث الصحيح: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن تسعوهم بأخلاقكم»[105].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «إنَّكم لن تَسعوا الناسَ بأموالِكُم، ولكن يسعُهم منكم بسطُ الوجهِ وحسنُ الخلق»[106].

ومما قيل في الأدب:

نوفالس: "لا يمكن للإنسان أن يصبح عالماً قبل أن يكون إنساناً".

ألبرتو مورافيا: "إذا أردت أن تعرف أخلاق رجل فضع في يده سلطة ثم انظر كيف يتصرف".

سقراط: "التربية الخلقية أهم للإنسان من ثوبه وخبزه".

نابليون: "تفسد المؤسسات حين لا تكون قاعدتها الأخلاق".

وقال الشاعر محمود الأيوبي:

والمرء بالأخلاق يسمو ذكره   **وبها يفضَّل في الورى ويوقَّر**

وقال شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال شوقي:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتماً وعويلا

وقال أحد الشعراء:

كم مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس أموات

ما أروع أن نقفَ في الطريق المزدحم ليمرَّ كبارُ السنِّ، ونتأخَّر خطوة ليسبقَنا الآخرون، ونبادرَ إخوانَنا بالبسمة والسلام!

ما أجمل أن نحبَّ الناس، ونحترمَهم! نعطيهم بدلَ أن نأخذَ منهم! نبادرُهم بالزيارة بدل أن ننتظر زيارتهم! نكتب على الرمل زلاتِهم، ونحفر فوق الصخر محاسِنهم. نفعل كلَّ ما يُدخل السرور على قلوبهم، ونكتب سطوراً تعلِّمهم، وننظم أشعاراً ترتقي بذوقهم.

إن حاجة الإنسان إلى حسن الخلق كحاجة الطير الحبيس إلى الأفق، وحاجة الأرض إلى المطر، وحاجة الطفل الرضيع إلى الأم.

يزهو المجتمع بِحُسن الخلق، ويقوى ويتماسك ويبني لنفسه مجداً ومهابة بين المجتمعات الأخرى.

أدرك الرائعون أن أعمارهم شجرةٌ في خميلة الحياة فغَرسوها في أخصب تُربة، وفهموا أنها رسالة فصاغوها من أرقِّ البيان وأجمل الكلم. وعلموا أنها بيتٌ فشادوه من لَبنات الإخلاص، وفرشوه ببُسط المحبَّة، وزينوه بالمعرفة، وسوروه بالعمل والعلم والعبادة ومحبة الناس.

ما أنبل سجايا أهلِ الخلق الحسن عندما يشعرون بالمحتاجين فيمدُّون لهم يدَ العَون، ويحسُّون بالمجروحين والمكروبين فيواسونهم، ويحسُّون بالمتخاصمين فيصلحون بينهم.

يشاركون الناس أفراحهم سواء أأرسِلت إليهم بطاقاتُ دعوة أم لم ترسل. يتجولون فوق خارطة الحياة بحرية وإنسانية فيتجاوزون حدود العصبية والقرابة، ويقفزون فوق أسوار العرق والجنس واللون. يهتدون بأنوار الله، ويستظلون برحمة الله ورضاه. تحفِزهم نفوس تنبض بالطُّهر، وقلوب مبصرة تتكلَّل بالصدق.

يتمنون الخيرَ لجيرانهم فيجدونَه في ديارهم، ويدعونَ لإخوانهم بالخير والعافية فتمطرُهم سحائب الخير قبل إخوانهم.

هم رئَة الكون الواسعة، ونهر الخير المعطاء الذي يجري في القفار فيروي ظمأَها، ويزينها بالخضرة.

هم الشواطئ اللينة التي تمتصُّ غضبةَ البحار والمحيطات، والجبال التي تحتمل ثورات البراكين وانتفاضات الزلازل،

والنسمات التي تبدد الدخان من فوق أعشاش الطيور وأسراب الفراش.

يعملون لله، ويعودون المرضى لله، ويبتسمون لوجه الله. همهم رضى الخالق. يدعون في الليل لينام الناس آمنين مطمئنين، ويعملون بجِد في النهار ليسيرَ مركبُ الحياة بأمان ويسر.

الفَرح

تنزعُ النفوس إلى الفرح كما تنزعُ الأكباد إلى الماء عند العَطش، وكما تهفو القلوب المشتاقةُ إلى اللقاء بعد الهَجْر.

الفرح الجميل هو ترجمة فوريَّة للرِّضا الدَّاخلي الذي يعيشه الشَّخص، وهذا الرِّضا ينسجُ خيوطه من تبادل المحبَّة مع الخالق والآخرين، ويظهرُ على شكل بسمة لطيفة ونظرة حانية ولمسة دافئة وموقف نبيل.

نتحدَّثُ عن الفرح الجميل الذي يخلو من العُجب والبَطَر والغُلوِّ والإفراط.

نتحدَّث عن الفرحِ المعتدل الذي يصلُ نفعُه إلى الآخرين.

نتحدَّث عن المرح والمزاح اللَّطيف والدُّعابة الراقية، كان رسولُ الله – ولنا فيه أسوةٌ حسَنة– يمزح ولا يقول إلا حقاً، ومازَحَ عجوزاً فقال: «إن الجنَّة لا يدخلُها عجوز»، وكانت في عليٍّ رضي الله عنه دُعابة، وكان ابن سيرين يمزحُ ويضحكُ حتى يسيلَ لعابُه، وسُئل عن رجل فقال: تُوفي البارحة، فلما رأى جزَع السائل قرأ: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: **39/42**].

ومازح معاويةُ رضي الله عنه الأحنفَ بنَ قيس فما رُئيَ مازحان أوقرَ منهُما[107].

الفرحُ بوابةُ الحياة السعيدة ومحفِّزٌ إلى العملِ والتواصُل مع الآخرين. لم يكُن الفَرح يوماً مرتبطاً باللَّذائذ المحرَّمة والنِّكات السَّاخرة الجارحة والرَّقص فوقَ نَكَبات الأمة وجِراحها.

ما أروعَ الأمَّهات اللواتي يتجاهَلن أحزانَهن، ويملأنَ وجوهَهُنَّ بالفرح ليسعدَ أبناؤُهن!

ما أروع ذلك المعلمَ الذي يتناسى مشكلاتِه الأسرية وهمومَه ويدخلُ إلى طلابه بوجه يتهلّل فرحاً ونفسٍ تفيضُ رضا، وهمَّة عالية وحماسة كبيرة!

حبَّبَنا دينُنا السَّمح بالفرح فجعَل لنا أعياداً نفرحُ فيها، ونمنحُ الفرح للآخرين بشتَّى الصُّور.

وهنا اسمحوا لي أن أتحدَّث مستفيضاً عن فرح ليلة العيد.

ففي ليلةِ العيد تتعانقُ الكواكبُ في السماء، وتذرفُ الدموعَ السِّجامَ على رحيلِ زينةِ الشهور، ودرَّة الأزمان، وتسلِّمُ جداولُ النور المتدفِّقة على أهدابِ السَّحَر الخجول المكحَّلة بالطُّهر، والمزدانةِ بالرَّحمة، ويعانقُ الفجرُ سنا الشَّمسِ السَّاطعة التي تُبادرُ السحبَ بالتحيَّة والمباركات، فتردُّ السُّحبُ التحيَّةَ، وتغادرُ الأفق ليتمتَّعَ الفائزون بصفاء السماء.

ما أروعَ تلك الليلةَ حيث تبدو الأرضُ طاقةَ زهر شذيَّة، ويبدو الأفقُ باسماً وضيئاً من صدى دعاء المخلصين، وصِدق مناجاة قائمي الليل!

في ليلة العيد، ترقُّ القلوبُ لتنسجَ من نبضاتها أناشيدَ المحبَّة، ومن شرايينها المتدفِّقة حبالَ الودِّ، ومن شُغُفِها الطريَّة ثيابَ الصَّفاء.

في ليلة العيد تمتلئُ وسائدُ الأطفال بالأحلام المزركشة، وتُصبح أسرَّتهم مروجاً من الزُّهور والأعشاب الطريَّة.

فالعيدُ جنَّةُ الأطفال، وما العيد بنظرهم إلا أكوامٌ من السكاكر الملوَّنَة، وجيوبٌ ممتلئة بالنقود، وسُحبٌ تنثُرُ الثَّلج

الأبيض على شعورهم وملابسهم. وماذا عن صباحِ العيد، حيث يخشعُ المدى والآفاق، وتهتزُّ الجبال الراسيات، وتطربُ الأرضُ والسماءُ لجلال التكبير وندائه الذي ينبعثُ من المآذن العامرة مضمَّخاً بذكر الخالق؟!!

صباحُ العيد شلاَّل من الفرح يتدفَّق في قلوب المسلمين الذين فازوا بالجائزة الغالية، فتصبحُ مشاعرهم الرَّهيفة أكثر بياضاً من الثَّلج، وتصبح أحاسيسهم الشَّفيفة أغصاناً مثمرة تملأُ النفس عطراً وجمالاً وروعة.

تتزيَّنُ اللغةُ بسحر البيان، وتكتسي بحلَّةَ البهاء، وتغتسلُ بقوافي الشعر وبحوره، ليفترَّ ثغرُها عن مباركات لطيفة وأمانٍ واعدة من الآباء للأبناء، ومن المتعلِّمين للمعلِّمين ومن الأصدقاء للأصدقاء، ومن الغرباء للغرباء.

في صبيحةِ يومِ العيد تجوبُ العصافيرُ الفضاءَ، ويُنشدُ الكروان، وتهدلُ أسرابُ الحمائم، وتغرِّد البلابل بِأَمان، فتصفِّقُ الأمواجُ، وتقتربُ الأسماكُ من الشاطئ لتلقي التحيَّة على الأطفال الأبرياء، وتُصغي إلى أغاريد طيور النَّورس المحبَّبة.

العيدُ ساعةُ صُلح وتراحُم بين القلوب والقلوب، بين العتاب والودِّ، بين الزنابق والبنادق، وبين السكاكين والرياحين، وبين الحدود والورود.

العيدُ مبادئُ تُصافحُ قيماً، وتسامحٌ يسكنُ أفئدةً، ولقاءٌ يمحو جفاءً. العيد أرواحٌ تطيرُ كأسراب الحمائم البيض، ونفوسٌ تُشرقُ بنقاءٍ أروعَ من يقظة الفجر.

ماذا يبقى من روعة العيد عندما تنحسرُ معانيه في توفير صنوف الحَلْوَيات الفاخرة، والألبسة الفخمة الفاخرة؟!!

ماذا يبقى من مقاصد العيد السَّامية عندما نزيِّنُ سماء المدن بالألعاب النَّاريَّة، ولا نزيِّن القلوب بالتسامح والمحبة والصَّفح؟!!

أيُّهما أنبل؟ أن نتسابقَ على أبواب الملاهي السَّاحرة، والمطاعم الفاخرة، أم أن نتسابق على أبواب الأمهات والآباء فنقبِّل الأيادي والرؤوس، ونسكب في آذانهم أحلى وأرقَّ التعابير، ونُودِع في أيديهم أغلى وأحلى الهدايا؟

وليس كثيراً إذا ما فعَلنا ذلك مع آبائنا وأمهاتنا لأنَّ من يضحِّي بعُمره وشبابه حتى يربِّي ولداً، أعظم ممَّن يضحِّي بوقته وبعض النقود ثمنَ هديَّة ليؤدي واجباً قد يبدو ثقيلاً عليه بعض الأحيان؟؟؟

وماذا عن يوم العيد أيضاً؟!!

عندما ترفُّ أجنحةُ الفرح محلقةً في فضاءات النفوس، فإنَّ مشاعرَ الحزن تتملَّكها الغيرةُ، فتململُ من مكامنها وتحرِّكُ مواجعَ القلوب الجريحة، فتسيلُ الدموعُ على الخدود حُزناً على زوجٍ فارقَ الحياة، وخلَّف وراءه قلوباً غضَّة بحاجة إلى الرعاية، وضفائرَ حالمة تحتاجُ إلى من يشمُّ

عطرها، وحزناً على زوجة رحلت، ورحلَ معها الحنان والدفء. وحزناً على فِلذةِ كبدٍ تركَ حقيبته الحالمة، وفارق أقرانه الذين يكبرون، وتكبر ذكراه معهم.

وماذا عن الأسرِ التي تقضي يوم العيد في المستشفيات مع أبنائها الذين يعانونَ الأمراض المزمِنة؟!!

لقد حبَس أولئك المرضُ في مساحةٍ ضيِّقة فوق سريرٍ أبيض، وحرمهم اللعبَ في الزحاليق والأراجيح مع أقرانهم.

وماذا عن أولئك الذين ليسَ لديهم ثيابٌ جديدة يفرَحون بها، ولا ألعاب يتمتَّعون بها؟!!

ورحم الله المتنبي عندما قال:

عيد بأيَّة حال عدتَ يا عيدُ	**بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديد؟**
يجدِّدُ الناس من لبس ومن فرح	**وعندنا للأسى والهمِّ تجديد**

علَّمنا رسول الله كيف نعيشُ العيد سعادةً وفرحاً، ونحكيه مواساة للحزانى، وتعاطفاً مع المنكوبين والمجروحين والغرباء.

علَّمنا كيف نمسحُ على رؤوس الأيتام، ونحملُ شفاهَهم الحزينة على الابتسام.

علَّمنا كيف نزرعُ الفرح في قلوب الآباء والأمهات وسائر الأرحام، والجيران.

علَّمنا كيف نتفقَّدُ الفقراءَ والمساكين.

علَّمنا كيف نجعلُ من يوم العيد ذكرى صفاء وإصلاح ولقاء.

فيا ساعاتِ العيدِ الباسمة، انثُري دقائقك وثوانيك مطراً على روابينا المشتاقة إلى القَطْر!

ويا شمسه السَّاطعة، انسُجي من خيوطك السنيَّة ثياباً زاهية، وأرسليها للأطفال الذين يَلبسون الخوف في الليل، والدموع في النهار!

ويا نجوم العيد أرسلي لنا بسمةً تلوِّن شفاهنا لتتوحَّد مشاعرنا!

الأمل

سُكونٌ ووُجومٌ يَلُفَّان أُفُقَ الكونِ بمائه ويابسه، وَشَبَحُ الظَّلامِ يقترب من الأشياء، ويلامِسُها، وَيَتَغَلْغَلُ فيها، ويزداد سواداً فَتَتَّحِدُ طبقاتُهُ، وَتَتَماسَكُ خيوطه ليسْدِلَ سِتارَةً سَميكَةً على الكون، إنه ملعب الليل حيث يَصولُ وَيَجُولُ، إنها النَّشْوَةُ والذِّرْوَة.

ومن بين ذلك الركام طفق الجنين الصغير – على قِلَّةِ عَزْمِهِ وضعف حاله – يَتَمَلْمَلُ في رَحِمِ الكون لِيَطرُدَ ما غَشِيَهُ ببطءٍ شديد.

أجنِحَةُ الفارس بدأت تضعف، وخيوطُ الظلام هاهي ذي تَتجابُ عن جَبهَةِ الوَليدِ المُنيرَةِ، وها هي امتدادات العتم بدأت بالانكماش.

في خِضَمِّ هذا المَخاضِ المُتَداخِلِ يَتَجَرَّأُ ضِياءُ الصُّبحِ فَيَنسَلُّ من غِمْدِ اللَّيْلِ، وتصيحُ الدِّيَكَةُ مُعلنةً بَدءَ الولادة، وتخترق المآذنُ جدران الصَّمت، فيستأنِسُ الجنينُ وَيَتَشَجَّعُ ويصرخُ ويَتَنَفَّسُ تنفُّساً ينشرُ الضياءَ والعبيرَ إلى أعالي الربا، وإلى دُروبِ الحقول وأعشاش الطُّيور..

إنها ولادة الصبح المنير، إنها ساعة من السَّحَرِ وَالتَّأمُّلِ، ساعَةٌ عَذراءُ يُكَلِّلُها الطُّهرُ، ويَلُفُّها الصفاء، ويزينها النقاء.

ساعَةٌ هي أَشْبَهُ ما تكون بلقاء الأحبَّة، حيث يغازلُ الصُّبْحُ فيها أزرارَ الياسمين فَتَتَفَتَّحُ، وأكْوامَ القشِّ فَتَلين، وسنابلَ القمح فتنحني، وأوراقَ الأغصان فتطرَبُ وتتمايل.

إنه جَمالٌ رَبَّانِيٌّ صَاغَهُ الخالق عَزَّ وجل. جمالٌ تتحرك لأجلهِ الشمسُ من مَكانها فتشرقُ، وتُثَارُ الطيورُ من وكناتها فَتنطلق، ويَنسابُ الظِّلُّ من رقادِهِ فيمْتَدُّ.

إنه إطلالَة ٌيتحوَّل فيها الشَّذا إلى ندى، والرياحُ إلى صَبا، والبراعمُ إلى زهور، والهواءُ إلى عِطرٍ تعجز أن تأتي مثله مصانعُ الغربِ وأشجارُ بَخُورِ الشَّرْقِ. ذلك العطر خَضَّبَتهُ تَراتيلُ الأذانِ، وهمساتُ الإيمان، وتَدفُّقُ مياهِ الغدران. عطرٌ يعرفه المشَّاؤون في الظلمات، والفلاحون في الربوات.

هذا الصباحُ هو اليُسرُ والفَرَجُ، هو الرَّحمَةُ والرضا. فمهما طال ليلُك يا أيها المهموم فلا بُدَّ من أن يأتي الصباحُ النَّدي ببشائرِ الخير. ومهما تأخَّرَ شِفاؤُكَ يا أيها المريض فاعلم أنَّ كفَّ الرحمة تحملهُ إليك.

فلا تتَعَجَّل _ يا أُخَيَّ – مَجيءَ الفَرَجِ وقدومَ البشائرِ لأن الله عادل ورحيم وحليم. وثق أنه جَلَّ جلالُهُ لن يحرمَكَ من ساعةِ فرحٍ تغسلُ شُحُوبَ الحزنِ، وركامَ الألَمِ، وتحوِّلُ الدموعَ الساخنةَ التي ألهبَت صفحاتِ خدَّيك إلى قطراتِ غَيْثٍ تُنبتُ الكلأَ في رياض نفسك، ليتحوَّلَ خَريفُ قَلبِكَ إلى ربيعٍ يَنشُرُ الفَرَحَ والجَمال على امتِدادِ خَريطَةِ روحِكَ الزَّكيَّة.

واعلم يا من أَدارَ ظَهْرَهُ للأمَلِ أن مع العسر يُسْرين، واعلَم أن أَعذبَ المياه تلك التي تَنْبَجِسُ من أصلَبِ الحجارة، وأن الصَّخْرَ الأصَمَّ هُوَ خيرُ مكانٍ لزراعة أَلَذِّ وأشهى الأشجار ثمراً.

وَرَحِمَ الله الشاعرَ الذي قالَ:

ما بين غَمْضَةِ عين وانتباهتها — يُغَيِّرُ الله من حالٍ إلى حالِ

والآخَرَ الذي قالَ:

فلا الغيمُ يبقى طوال الفُصول — ولا البدر دوماً ينيرُ الفضاء

فبالصَّبر كنت أُداوي الجروح — وبالأملِ العذْب أخفي البُكاء

ورحم الله الطغرائي الذي قال:

أعلِّل النفس بالآمال أرقبها — ما أضيق العيش لولا فسحةُ الأمل

وقال البحتري:

لولا الرجاء لمتُّ من ألم الهوى	**لكنَّ قلبي بالرجال مؤمل**

وقال الزهاوي:

يعيشُ بالأمل الإنسان فهو إذا	**أضاعه زال عنه السَّعي والعمل**

ومما قاله الحكماء في الأمل:

أرسطو: (الأمل هو حلم اليقظة).

قول عربي: (كن مخلصاً في عملك تبلغ أقصى أملك).

مثل فنلندي: (لا بدَّ أن يشرق الضوء في آخر النفق).

فالصَّبْرُ دَأَبُ الحكماء، وديدَن الأنبياء. والأَناةُ مَركبُ العُقَلاء، وسَبيلُ الحُصَفاء. وعدم الشكوى لغير الله مَنهَجُ الأتقِياء، والتسليم لله خيرُ سلوان، وراحةٌ للأبدان. إنَّ معَ العُسر يُسراً، إنَّ مع العُسْر يُسراً.

أيها الشباب المتألق، أيها الفتيان الواعدون، أيها الآباء والأمهات، احذروا الوقوع في شَرَك الإحباط، وبراثن اليأس، واركبوا دروب الأمل والتفاؤل، وأقبلوا على الحياة بعزم فتيٍّ وروح مُتفائلة وإصرارٍ قوي، لأنكم أملُ الأمة وغراسها المورقة.

الاعتذار

يبادر النبلاءُ إلى الاعتِذار عندما يحسُّون- ولو من طَرَف خفيٍّ- أنهم أخطؤوا مع إنسانٍ ما أو قصَّروا في حقِّه.

لا يتردَّدون في الاعتذار، ولايتوانونَ لحظةً واحدة، غايتُهم أن يقبلَ الطرفُ الآخر اعتذارَهم، ويصفحَ عنهم. لا ينتصِرون لأنفسهم البتَّة، ولايدَعون للشيطان فرصةَ الولوج إليها.

في كثير من الأحيان يحوِّل هؤلاء الرائعونَ باعتذاراتهم النبيلةِ الموقفَ من شقاقٍ إلى وِفاق، ومن تشاجُر إلى تَآزُر، وربَّما أدَّت اعتذاراتُهم إلى صداقَة متينة.

والإنسانُ ليسَ معصوماً، وليس كاملاً ولكنَّه مجبولٌ على الخطأ بحُكم بشريَّته، فحريٌّ به أن يبادرَ إلى الاعتذارِ عندما يرتكب خطأً ما أيًّا كانت دوافعُ الخطأ وبواعثُه. ثم إن الاعتذار يجلو الانزعاجَ من فوق صفَحات القلوب، ويزيلُ التوتُّر من النفس كما تجلو الريحُ الغبارَ من فوق الصخور الناعمة.

والاعتذار إنما يُنبئ عن سموٍّ في الأخلاق ونبلٍ في الطباع وشفافيَّة في النفس.

كثيرون هم الذين يعدُّون الاعتذار دليلاً على ضَعف المعتذر فتجدهم يدافِعون عن خطئِهم وينافِحونَ عنه بكل ما أوتوا من بيانٍ ومكرٍ ودَهاء، ويُصرُّون على رأيهم، ولا يعتذرون ولو أدَّى عدمُ الاعتذارِ بهم إلى طلاقِ أزواجِهم أو إلى نشوبِ فتنة يُعلم أولها ولا يُعلَم آخرها.

الاعتذارُ مطلبٌ ضروري في حياة الأسرة والمدرسة والعَمل وفي كلِّ مكان، ثم أقول لمن يُصرُّ على عدم الاعتذار: ماذا لو أخطأ أحدٌ بحقِّك بقصدٍ أم من غير قصد، ألا ترغبُ أن يبادرَ إلى الاعتذار منك، وإبداءِ الأسف؟!!

الله سبحانه وتعالى يقبلُ اعتذارَ المخطئين في الدنيا، ويفرحُ بتوبتهم كما تفرحُ الأم بعودةِ ولدها الغائب.

ما أشبهَ الاعتذارَ بالشمسِ التي تبدِّدُ ظلمةَ الليل!

ما أشبهَ الاعتذارَ بالنَّسمات اللطيفة التي تُبعِد ذَرات الغبار عن خدود الزهر الناعمة!

كما أن الاعتذار يفقدُ أهميته ومغزاه إذا جاء متأخراً عن وقته، أو جاءَ نتيجةَ إحساس بخطَرٍ ما، وليسَ بدافعِ العودة الحقيقي عن الخطأ، لذا نجدُ أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل اعتذارَ الكافرين بعد فوات الأوان: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التحريم: **66/7**].

ولكن من غير المقبول أن تتحوَّل حياةُ الإنسان إلى سلسلةٍ من الأخطاء المتكررة والاعتذارات الكثيرة، لأنَّ الأخطاء التي يرتكبُها الإنسان غالباً ما تخلِّفُ آثاراً، وإليكم هذه القصة المعبِّرة في هذا المقام:

«يحكى أنَّ الجدَّ اصطحبَ حفيدَه الغضوبَ إلى مزرعته، وطلبَ منه أن يدقَّ مسماراً في الجدار عند كل مرة يغضبُ فيها. وفي نهاية اليوم الأول دقَّ الحفيدُ عشرين مسماراً في الجدار. في اليوم الثاني، طلب الجدُّ من الحفيد أن ينزعَ مسماراً مقابل كل مرة يتمكن فيها من ضبط انفعاله وغضبه. وخلال أيامٍ قليلة تمكَّن الحفيدُ من نزعِ جميع المسامير.

عندئذٍ قال الجدُّ للحفيد: صحيحٌ أنَّك نجحتَ في إزالةِ جميع المسامير ولكن آثار المسامير بقيت واضحةً في الجدار. فعندما نعتذر عن الأخطاء التي ارتكبناها تزول المشكلة ولكن آثارها تبقى».

قال الشاعر محمد البغدادي:

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً	**من التقصير عذر أخ مقرِّ**
فصنه عن جفائك واعفُ عنه	**فإنَّ الصفح شيمة كل حرِّ**

قال بوبليليوس سيروس: "الاعتراف بالخطأ هو أقرب شيء إلى البراءة".

وقال جوناثان سويفت: "لا تجعل العذر كذبة مزخرفة".

ومن أروع صُور الاعتذار ما كانَ من اعتذارِ كعب بن زهيرٍ إلى رسول الله في قصيدته المشهورة (البردة):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	**متيم إثرها لم يفد مكبول**
وما محمد إلا نور يستضاء به	**سيف من سيوف الله مسلول**
أنبئتُ أن رسول الله أوعَدني	**والعفوُ عند رسول الله مأمول**
كل ابن أنثى وإن طالَت سلامته	**يوماً على آلة صماء محمول**

فما كانَ من صاحبِ الشمائل العَطرة إلا أن قبِلَ اعتذاره، وعَفا عنه، وألبَسه بردتَه، وسُميت القصيدةُ بالبردة.

جميلٌ أن نقرَّ بخطئِنا عندما نخطِئُ، والأجملُ أن نسرعَ إلى الاعتذار ممن أخطَأْنا في حقِّه.

أن نعتذرَ يعني: أننا ترفَّعنا عن الكِبر والغرور....

أن نعتذرَ يعني: أنَّنا أحسَسْنا بالآخر...

أن نعتذرَ يعني: أننا قادرون على التَّحليق في آفاق الإنسانية الحقيقية...

وختاماً أقول: لن تنمو القيمُ الخلقية في نفوسِنا مالم نتحرَّرٍ من مشاعر الطَّمع والعُنف والأنانية والانتقام والإقصاء والتهميش التي تكبِّلُنا من الدَّاخل، وتعيقُ تدفُّق أنهار النبل الثرَّة من مشكاة النقاء والإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلوبنا.

برُّ الوالدين

ما من شيءٍ أدلُّ على أصالة الإنسان وسموِّ أخلاقه ورفعته من برِّه والديه، وما من شيء أدلُّ على سوء أخلاق الإنسان وجحوده وخسَّته من عقوقه والديه.

برُّ الوالدين أشبه بمن يأخذ خميلةً من الزهور ويعطي زهرة، أو بمن يشرب نهراً من الماء ويهبُ قطرةً. هو ليس تكرُّماً أو تفضُّلاً من الأبناء بقدر ما هو ردٌّ لجزء يسير من المعروف والتضحية والعطاء الذي إنما قدَّمه الآباء طواعيَة ورغبة ومحبَّة وتضحية.

لذا نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يوصِ الآباءَ بالأبناء، ولكنه وصَّى الأبناء بالآباء. فهل الأمُّ بحاجة إلى من يوصيها بالاهتمام بوليدِها الذي يأخذُ بمجامِع لبِّها ويستحوذُ على قلبها؟!! يتدفَّق الحنان من صدرها والفرح من ثغرها والدفء من حضنها والسعادة من عينيها عندما تضمُّ صغيرها إليها.

تهجرُ النوم، وتقاوم السُّهاد، وتتضرَّع إلى الخالق عز وجل بقَلب كسير وطَرف دامِع عندما يُصاب ولدُها بمرض ما.

هل الأبُ بحاجةٍ إلى من يوصيه بأبنائه وهو الذي يجوبُ الأرض طولاً وعرضاً ليوفِّر لهم لُقمةَ العيش الهنيئة والحياة الرغيدة السعيدة؟!!

يشعرُ الأبُ بسعادةٍ غامرة وفرح قلَّ نظيره عندما يحقِّقُ لأبنائه ما يتمنَّونه من مَلبَس ومأكَل ومشرَب وتعليم وغيره.

يعرفُ الأبناءُ قيمةَ البرِّ عندما يصبحونَ آباء وأمهات، ويسهَرون الليل عندما يمرض الابنُ، ويبذلون الغالي والنفيس من أجل شفائه وسعادته.

«روى المأمون أنَّه لم يرَ أحداً أبرَّ من الفضل بن يحيى بأبيه، فقد كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء ساخن، فلما دخلا السجن ذات مرَّة، منعهما السجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فلما نامَ أبوه قام الفضلُ وأخذَ إناءَ الماء، وأدناه من المصباح فلم يزل قائماً به حتى طلع الفجرُ، فقام أبوه فصبَّ عليه الماء الدافئ، فلما كانت الليلة الأخرى أخفى السجَّانُ المصباحَ، فقام الفضلُ فأخذ الإناءَ وأدخله تحت ثيابه، ووضعه على بطنه حتى يدفأ بحرارة بطنه متحملاً بذلك برودة الماء والجو».

ولعلَّ هذه القصَّة المؤثرة تبين أهمية بر الوالدين، وتحذِّرُ من العقوق:

«عاشَ رجلٌ مسنٌّ مع ولدهِ وزوجةِ ولدهِ في كوخٍ قديمٍ. وبعدَ مدَّةٍ أنجبَت زوجةُ الابنِ طفلاً جميلاً فسُرَّ الجدُّ بحفيدهِ الأول أيَّما سُرورٍ.

ومع مرورِ الأيام بدَأت تظهرُ علاماتُ الشيخوخةِ بشكل واضحٍ على الجدِّ، وعندما كان يجلس على المائدة كانت يده ترتجف وهو يحمل الملعقة أو الكأس وكثيراً ما كان يسقط من يده كوب اللبن، وينسكب على المائدة. كان ابنه وزوجته يتضايقان منه كثيراً، وذات يومٍ اتَّفقا على أن يخصصا له مائدةً في أحد أركان المنزل، ويسكبا له الطعام في صحن خشبي حتى لا يتكسَّر إذا ما سقط على الأرض.

شعر الجدُّ بالحزن العميق عندما صارَ يأكل بمفرده، ولكنه كان يكبت جراحه في صدره.

وبعد مدَّة قصيرةٍ وبينما كان الأبُ عائداً من عمله وجدَ ابنه الصغير يمسكُ بقطع خشبية ويدق فيها بعض المسامير.

استغربَ الأب من تصرُّف ولده وسأله: ماذا تفعل يا بنيَّ؟

أجاب الابنُ ببراءةٍ: أصنع لك صحناً خشبياً يا أبي، لكي أسكب لك الطعام فيه عندما تكبر. تأثر الأب كثيراً، وراح من فوره يقبِّل يدي والده ورأسه. وأدرك أن الذي يعق والديه يعقُّه أبناؤه، ومن برَّ والديه برَّه أبناؤه».

فبرُّ الوالدين رمزُ الطهر والطاعةِ والإيمان والاستقامة، فهنيئاً للبارِّين بآبائهم رضا الله ورضا الناس عليهم، ورضا ضمائرهم التي ترشُّ المسكَ على أفئدتهم الطيبة ما كرَّ الجديدان.

البرُّ بالوالدين رياضةٌ روحانيَّة، ورحلة إنسانيَّة تُضاهي أجمل الرحلات وأروعها سعادة وأنساً ورضاً. شتَّان بين من يتمنى أن يطيلَ الله بأعمار والديه ليستمتِع ببرِّهما، وبين من يتمنَّى موتهما ليُزيل عن كاهله ثِقل الواجب الذي يؤرِّقه صبح مساء.

شتَّان بين من يقبِّل يدَي والدَيه صباحَ مساء، وبين من يتَعالى عليهما، ويؤذيهما بنَظَراته؟!!

وورد في الحديث الصحيح أن أعرابيًّا سألَ النبي : أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين». قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال: حدَّثني به، ولو استزدتُه لزادني»[108].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله : «من سرَّه أن يُبسَطَ له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»[109].

دُمتم نجوماً مشعة يا أيها البارُّون.

دُمتم أنهاراً تترقرق بالبركة والخصب والنماء.

دُمتم ودامت أخلاقكم الطيبة ومُثُلكم الحميدة.

إنني لأشعرُ بالطمأنينة، والراحة ما دامَ هناك أناس بارُّون بآبائهم وأمهاتهم.

الدنيا بخير ما دام البارُّون فيها، حيثُ يسطِّرون على سطورِ أسفارِها عبارات تشعُّ عطاءً وتنير الدربَ للأجيال القادمة.

الشجاعة

تتعدَّد وجوهُ الشجاعة كما تتعدَّد صنوفُ الزهر وألوانه وعطره، ولعلَّ من أروع صنوفِ الشجاعة ما كانَ في الصبر، وامتلاك زمامِ النفس، وحَبسها عن الغَضب وفوراتِ الشهوة، قال رسول الله في الحديث الصحيح: «ما تعدُّون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعُه الرجال. قال: لا! ولكنه الذي يملكُ نفسَه عند الغضب»[110].

الشجعان الحقيقيون هم الذين يشهَرون سيوفَ الحكمة، ويلبَسون دروعَ العفَّة، ويعلِنون صيحةَ بدءِ المودة والمحبَّة مع الجميع.

تفترُّ بسماتُ اللين والنُّبل من عزائمهم القوية افترارَ ينابيعِ الماء الزلال من الحجارة الصلبة، ويرتسمُ الصدق والإخلاص على وجوههم كما يرتَسم النورُ على وجه القمر.

تتمثَّل شجاعتهم في صدقهم في أقوالهم وأعمالهم، وفي إخلاصهم، واستقامَتهم، وبُعدهم عن الموارَبة والتلوُّن والمجاملات المفرطة.

هم النبلاءُ الرائعون، والأسخياءُ الذين يُؤثِرون غيرَهم عليهم، ويجِدونَ متعَةً كبيرة عندما يقدِّمون الخير للناس، وعندما ييسِّرون أمورَهم. يقِفون إلى جانبِ الحقِّ بِثَبات غير مبالين بالآثار السلبية التي قد تجرُّها عليهم هذه الوقفة.

لا يواربونَ في كلامِهم، ولا يمارون على حسابِ مبادئِهم، ولا يلوِّنون عباراتهم باللون الرمادي.

ورحم الله الشاعر عمر أبو ريشة عندما قال:

تقضي الشجاعةَ أن نمدَّ جسومنا **جسراً فقُل لرفاقنا أن يعبروا**

والشاعر الآخر القائل:

تقضي البطولةُ أن تموتَ من الظَّما **ليس البطولة أن تعبَّ الماء**

ورحم الله شوقي عندما قال:

إنَّ الشجاع هو الجبان عن الأذى **وأرى الجريءَ على الشرور جبانا**

الشُّجعان الحقيقيون هم المصلحونَ الذين يؤلِّفون بين القلوبِ المتنافرةِ، والنفوسِ المتشاحنة، وأصحاب الآراء المتباعدة كما تؤلِّف الأمُ الحنونُ بين خصلات شعرِ ابنَتها، وكما تجمعُ الرياحُ الخيِّرةُ أجزاءَ الغيوم المتناثرة لتشكِّل منها سحابَةً ممطرة.

هم الربيعُ المنتظر الذي يأتي عقبَ شتاء طويل بارد فيرسم الفرحَ على محيَّا الكون، وينثر الزهور الملوَّنة بين أعشابه الخضر الطرية، ويُنشد أنشودةَ الجمال بينَ يدي الأفق.

ما أشبهَهم بالقمر المنير الذي يختفي وراءَ الغيوم لبعضِ الوقت، ثم يسطعُ من جديدٍ مبدِّداً العَتَمَة بضيائهِ المتوهِّج!

الشجاعة المحبَّبة تتجلى بالحلم، والالتزام بالقيم، والثبات على المبادئ، واتخاذ مواقف مشرفة في الأوقات العصيبة.

تتجلَّى الشجاعةُ بأبهى صورها في الصبر على الآخرين، والتماسِ الأعذارِ وإلانة الجانب لهم وحَمل مواقفهم

وزلاتهم على مَحمل الخير. ورحم الله المتنبي الذي قال:

الرأيُ قبل شجاعة الشجعان **هو أوَّلٌ وهي المحلُّ الثاني**

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حرَّةٍ **بلغت من العلياء كل مكان**

الشجعان الحقيقيون هم الذين يُعمِلون أذهانهم، ويُجهدون عقولَهم في سبيل تقديم العلم النافع لأبناء أمتهم؛ العلم الذي يُزكِّي النفوس، ويبثُّ في القلوب المعاني الخيرة، والقيمَ الفاضلة.

ومما قيل في الشجاعة:

فولتير: "أشجع الناس من قاومَ هوى نفسه، وحبَسَها عن الدنيا".

أرسطو: " ليست الشجاعة أن تقول كل ما تعتقد، إنما الشجاعة أن تعتقد كل ما تقول".

نابليون بونابرت: " الشجاعة بلا حذر حصان أعمى".

نحن في حاجةٍ ماسَّة إلى شجاعةٍ راشدة حَكيمة، ولسنا بحاجةٍ إلى شجاعة متهورة.

نحن بحاجةٍ إلى شجعان يحصُدون الأوسمةَ في مضاميرِ المسابقات العلميَّة والاختراعات النَّافعة أكثر من حاجتنا إلى شجعان يحصدونَ الأوسمةَ في مضامير الإنفاقِ في غير محله والسهر الطويل والنوم الطويل.

قلوبٌ تهتِفُ حبًّا

يختزن القلبُ المحبُّ رحيقَ الحياة، ثم يرسلُه عبر النَّبضات الحانية غيثاً نديّاً يروي الشرايين الظامئة فتبسمُ المشاعر ثم تزهر على ضفاف النفس، ويتغنَّى الجسدُ بالأمل والفتوَّة.

يفتح القلب مع كل نبضة من نبَضاته الفتيَّة نوافذَ المحبَّة فيتسلَّل النور ليوقظَ الأحاسيسَ الغافية في روابي النفس، فتفوح عطراً، ومن ثمَّ تعزف الروح أنشودة البهجة.

يجوبُ رياضَ الزَّهر، ويسامرُ البلابلَ الحالمةَ، ويروي شوقَه من قطر الأبجدية ثم يكتبُ قصيدة الطُّهر بقوافي النبل الآسرة.

ما أروعَك أيها القلب المحبُّ! ما أجملك!

عندما تبتسمُ يا أيها القلب تعذبُ الكلمات، ويضيءُ الوجه، وتصفو النفس، وترفرف رايات المحبة، وتهبُّ نسائم الصَّفح والسلام.

عندما تبتسمُ يا أيها القلب تبتسمُ الدنيا، وتجري أنهارُ العطاء، وتخصبُ البوادي، ويفتَح الربيع بواباتِ الخصب والنَّماء والفرح.

ما أحوجَنا إليك أيها القلبُ الواسع! ما أحوجَنا إلى قلب يسعُ محبَّة الإنسان والأوطان والوالدين والأصدقاء والجيران!

ما أحوجنا إليك أيها القلبُ المتسامح! ما أحوجَنا إلى قلب يغفرُ الخطيئات، ويتناسى العَثَرات، ويصفح عن الزلات! قلب يمسح الدموع عن وجَنات أشجار النَّخيل الباكية، وينفضُ

الغبار عن المغازل الخشبية القديمة، ويزيل الصَّدأ عن السُّيوف المعلَّقة التي تكتظُّ بمعاني العزَّة ودِلالات الفخار.

أنت أيها القلب تحمِل معاني السعادة، وتملِك بلسَم الشفاء، وتخبِّئ في جناحَيْك أسرار الفرح.

تحمل مظلةَ الصَّبر، وتملِك مفاتيحَ الجنة، وتُخفي خلفَ شَغافِك الطري أنواعاً عديدة من الجمال الأخَّاذ.

يرتوي العقلُ من وحي إلهامِك فيجودُ بأفكار تبني، وومضاتٍ تنيرُ الدروب، تحمل في سناها ضروباً من السعادة للبشرية جمعاء.

تستمدُّ العيون الإبصارَ من إشراقات نورك فينكشف أمامَها المستور، وتسبرُ أغوار الأشياء فترى دقائِق الجمال وبنيَّات القيم، وتحدِّق بحنان لتكتشفَ الجمال، وتغضَّ الطرف عما سواه.

عندما تهتفُ يا أيها القلب بالمحبة والصفاء تستجيبُ لك النفوس الغضَّة، وتمدُّ أيديَها إليك لتعمرَ الحياةَ بالصِّدق، وتعاملَ الناس بالحسنى، وتكتبَ رسالَتها السامية بسطور من نور.

تعلَّمْنا منك الجدَّ والمثابرة إذ لا تفتأُ تنبض، وتعطي ما كرَّ الجديدان.

تعلَّمنا منك التفاؤل والطُّموحَ الباسمَ والنَّظر إلى الأمام وعدَم التوقُّف عند كل محطة.

تزرع العطاء والأمل فتحصدُ الحبَّ. تهبُ رحيق الحياة للعروق والحواس فتنصِّبك أميراً عليها، وتنقادُ لك بطواعية عجيبة.

هنيئاً لك أيها القلب المحبُّ تلك المكانة الرفيعة التي تبوأتَها، كيف لا أهنِّئك وأنت خِلْوٌ من الكبر والحسد خلوَّ السحابة البيضاء من البقع السود؟!

كيف لا أهنِّئك وأنت تجعل من نبضاتك الرقيقة تُروساً منيعة لصدِّ سِهام الغرور وحبِّ الذات؟!

ما أبهاكَ عندما تجعلُ من عروقك السخيَّة جداولَ تتدفَّق بالمياهِ الزلال لتطفِئ نيران الغيرة والحقدِ التي تثمِّرها النفسُ وتنمِّيها!

صلَحت فصلَحَ سائرُ الجسد، تكلَّلت بالإيمان فسبَّحَت الجوارحُ، وسجَدَت للخالق.

ما أشبهَك بنورِ الشمس عندما يملأ الأكوان! ما أشبَهَك بالضياءِ الذي يتدفَّق من جبينِ الفجر فيمحو ظلمةَ الليل، ويهمِسُ بالمحبة والحياة لجميع الكائنات، ويعزفُ أنشودة الصباح الجميلة!

عندما كتبتَ رسالة العفو صافحَ الناسُ بعضُهم بعضا، وتبادلوا الابتسامات والتهاني، واجتمَعوا في منزل واحد متحابِّين متآلفين ينتظم نفوسَهم عقدٌ من الياسمين، وتظِلُّ قاماتهم الشمَّ رايةُ الألفة والتعاون.

ما أجمل هيبتَك وأنت تحوك مع القلوب الصديقة بيارق العزَّة، فتنتظر إليك الأمم بعيون ملأى بالتقدير والإجلال والاحترام!

عندما شمَّرت عن ساعد الجدِّ، وسقيتَ أزاهير الهمَّة بماء الإقدام برعَمَ العزمُ الفتيُّ، وراح الناس يبنون الديار بِلَبنات النجاح ومِلاط الإخلاص.

أيها القلب المبصر، عندما ملَكتَ المحبةَ والإخلاص والفَهم أسْلَمَتِ الدُّنيا قيادَها لك، وأماطَتِ اللثامَ عن أسرارها، ووضعت ثرواتِها بين يديك فمخَرْتَ عُبابَ البَحر، وجُبْتَ أعماقه، وعُدْتَ باللآلئ والأصداف النفيسة والمعادن الثمينة والمعارف الجديدة عن كائنات البحر وغيرها.

اقتحَمْتَ عوالمَ المجرات والكواكب الغامضة، وفكَكتَ كثيراً من رموزها، وعُدتَ تُثبتُ نظرياتٍ عديدةً، وتبني فَرْضياتٍ جديدة.

تأمَّلتَ نباتاتِ الأرض وأعطيتها حقَّها من الدراسة والبحث فاكتشفتَ العديد من الأدوية التي تحملُ الشفاء للمرضى والغذاء النافع للأصحاء. ما أروعَ أصالتك! وما أشدَّ تعظيمك لتراثِ أمتك عندما جعلت مكتبتَك نصفين، نصفاً ملأته بكتب التراث الأخضر، والنِّصف الآخرَ ملأته بكتب الحاضر الزاهي!

دمت متألقاً أيها القلبُ الوسيمُ، أيها الزهرة التي تتغذى من قطرات الندى، وتتنفَّس نسيم الصَّبا، وتملأ الآفاق بالعطر المنعش. دمت فتيّاً ملهماً حانياً تَشيدُ الحياة، وتوحِّد المشاعر، وتبدعُ قوافي المحبة، وتسطِّرها في أسفار العطاء والبناء. دمت نقيًّا شفيفاً تفيضُ من جنَباتك بسماتِ الوداد كما تُفيضُ الينابيعُ الثرَّةُ المياهَ العذبةَ.

أيها القلب، أنت المدادُ والدَّواة، أنتَ دلالةُ الحرف وقافية القصيدة فاكتُبنا عبارةً متينة الأسر في سِفْر التاريخ، وقصيدة جزلة البناءِ في ديوان الأمم. اكتُبنا بحبرٍ أخضر لتحلِّقَ السطورُ، وتغادرَ الأعشاشَ الجافَّة، وترفرفَ فوق خمائل الربيع الزاهية ذات الأشجار الباسقة والظلال الملونة.

تجوَّل بنا في دروب الحقولِ الطريَّة حيث النسيمُ العليل يغزل الحُسن الليِّن والسِّحر الفتَّان، وارتقِ بنا إلى القمم

العالية لنمشيَ فوق أرض بِكْرٍ، تنبت فيها سنابلُ القمحِ الذهبيةُ ونَبَتات الكَمْأة النافعة لنعيشَ هناك، ونصافحَ السُّحُبَ التي تحملُ تباشيرَ المطر، ونتوضَّأ بقَطر الندى. نقبِّل سنا الشمس عند الشروق، ونطبعُ على جبينها قبلةَ الوداع عند الغروب، ونسامرُ النجوم التي تومِض في صدرِ السماء كما تومضُ البسمة في وجهِ الأم عندما تشاهد مولودَها لأول مرة.

ازرعنا حناناً ونبلاً ورحمةً في السهول ليبتسمَ الحيارى، وتفرحَ الحزانى، وتأمنَ الأفراخُ في أعشاشها، والظباءُ في ملاعبها.

ازرعنا قمراً في سماء الحياة يؤنس الآفاق بالجمال، وينير الدروب للسُّراة.

انقش أمانيَّك الخضراء لحناً شجيّاً على ذاكرة النسيم الرائقَ لنتنفسَ الأمل والفرح اللَّذين بهما تحلو الحياة.

الشُّكر

خلقَ الله الإنسانَ من طين وماء، ولم يخلقه من مادَّة الصخرِ القاسية، وأودَع فيه نفحةً من الرحمة، ونفحة من اللين، وأخرى من الرقَّة فتجده يألفُ الجمال بشتى صوره وأنواعه، ويميلُ إلى الأنس ومشاركة الآخرين والتفاعل معهم، ويسعَد أيَّما سعادة بثناء الآخرين على صنيعه، وشُكرهم إياه.

تطلبُ النفسُ مادَّةَ الشُكر، وتحتاجُ إليها حاجةَ الحبرِ للمِداد، وحاجةَ الأشجار للماءِ، وحاجة المحبِّ للتأمُّل؛ لأنَّ مادَّة الشكر تؤنس النفس، وتدغدِغُ أحاسيسها، وتسكبُ في شرايينها بلسَم الرضا، وهي تشبه الجسرَ الذي يحملُ المحبةَ ويبلِّغها من نفس إلى نفس، ومن حسٍّ إلى حسٍّ.

الشكر أنواع كثيرة، منها ما يصنعُه اللسان، ومنها ما تنسجُ خيوطَه العين، ومنها ما تبوحُ به النفسُ فيخرج من القلب ليقع في القلب، ويرسم البشرَ والفرح على المحيَّا.

الشكرُ قيمةٌ من القيمِ التي تحقِّقُ السعادةَ، ورسالةُ محبَّة صادقةٌ تؤلِّف بين القلوب كما تؤلِّف أنسامَ الصباح بين عبيرِ الورود، وكما يوحِّدُ قدومُ الغيثِ مشاعرَ الكائنات الحيَّة وأشواقها في الخمائل.

من يضنُّ بكلمةِ شُكر لأخٍ صنعَ له معروفاً، وقدَّم له خدمةً فهو بخيل بحقٍّ، وإن من يستكثِر على أخ له كلمة "شكراً" أو كلمة " جزاك الله خيراً" فهو لا يعرفُ للُغة المشاعر معنى، ولا لأبجدية الأحاسيس مبنى.

الناس مطبوعون على محبَّة سماعِ عبارات الشكر والثناء، وأصبحت ثقافة الشكر، في الآونة الأخيرة، مقرونةً بحسن الأدب، ورقيِّ الذوق، ودماثةِ الخلق، ورقَّة الطبع، ومواكبة روح العصر، وبات الناسُ يتنافسون بتجسيد محاسن الأدب، ودلالات الرقيِّ، ومعاني اللَّباقة والظَّرف.

ولا يغيبُ عن الإنسان أن يشكر خالقَه الذي أنعم عليه نِعَماً عظيمة؛ نعماً أكثر من أن تُعدَّ وتحصى، وأكثر من أن يحيطَ بها كتابٌ أو مجلَّدٌ ولو بلَغ عددُ صفحاته عددَ قطرات ماء البحر.

قال تعالى في محكم التنزيل: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: **16/18**].

وقال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل: **16/114**].

وقال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: **16/78**].

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: **16/14**].

ويقول المثل العربي: "بالشكر تدوم النعم"[111].

وقال المثل العربي أيضاً: "اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك"[112].

ويقول المثل المجريُّ: "إذا قصرت يدك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر"[113].

ومما قال الشعراء عن الشكر:

الشكر أفضل ما حاولتُ ملتمساً — **به الزيادة عند الله والناس**

وقال آخر:

فبادرِ الشكر واستغلِق وثائقَه — **واستَدفع الله ما تجري به النقم**

ولا يكون الشكر بالكلام فحسبُ في جميع الأحوال، ولكنَّ الشكر يتطلَّب المكافأة العينيَّة في بعض المواقف، أما الشكر للخالق فيتجلى بالحمد والثناء عليه، والإكثار من عبادته، وحُسن استخدام النِّعم بما يرضيه، وصرفها في وجوه الخير النافعة، وما يعود على العبادِ بالخير العميم.

ومن شكر الله احترام نعَمه وحُسن استخدامها والبُعد عن الإسراف والتبذير في أثناءِ التمتُّع بها كنعمة الماء والكهرباء وغيرها من النِّعم التي لا تُعد ولا تحصى.

ومن معاني الشكر توظيف النعم فيما يرضي الله، كنعمة الإنترنت (الشابكة) والتلفاز وغيرها من الأدوات التقنية الحديثة.

ما أجمل أن تشيعَ ثقافةُ الشكر فيما بينَنا، لتزدادَ محبَّتنا، وتقوى علاقاتُنا، وتتماسكُ عُرانا، وتتَّحد فِرَقُنا، وتصفو نفوسُنا، وترقى معاملاتُنا، ويحلو عيشنا، ويرضى عنا ربُّنا.

من فيضِ الروح

تسري الروح في عوالم الأشياء وماهيَّاتها فتمنحها جوهرَ الحياة الثمين. تتغلغلُ في الذَّوات والدقائق تَغلغُلَ الماء في الجذور الناعمة، وتغلغُل الشَّذا في أوراقِ الزهر. تسكُن في الأشياء فتغيِّر طبائعَها فتارة تمنحُها الحياة وتارة أخرى تمدُّها بالجمال بإذن الله.

تسبحُ في بواطنِ الأشياء كما يسبحُ الخيال في ذهن الشاعر الملهَم، وكما يتألَّق الفنُّ في ثنايا ريشة الرسام المبدع.

تلامسُ سَنا الصبح فيتنفَّس، وتتسربُ في أكمام الورد فينتشر العطر، وتحطُّ بوَدْقِها على الحقول المقفرة فسرعان ما تمرع وتخصب.

أينما حلَّت الروح حلَّت اللمسة السَّاحرة والحضور اللافت، تتسلَّل عبر الكلمات فتحولها إلى بيان يأخذ بالقلوب والألباب. تهامسُ القلب فينبض بالحبِّ والصفاء والفهم. تسكنُ في العيون فتجلو بلَّور أحداقِها لتشاهدَ المحاسن وتغضَّ الطرف عن المساوئ، وترى جميل صنع الخالق في كل شيء.

ترفرف فوق خيام البدوِ فتكسوها بالأصالةِ والروعة. ترتعُ في مجالس البسطاء فتفيضُ عليها فيوضَ السعادة، ولكنها سَرعان ما تغيب عنها النَّضارة عندما تقتربُ من القُصور الفارهة التي يغشاها التكلُّف والتصنُّع، وتجفُّ منابعُ الروعة عندما تحضرُ إلى معظم مجالسِ المترفين الملأى بشتَّى صنوف المجاملات المقيتَة والبَسمات الصفراء الخالية من الصدق خلوَّ القفارِ من زهر البنفسج.

تضاحكُ النفس فتحرِّك فيها جذوةَ الخيرِ والبذل. تذوبُ في المدادِ فتورق السطور، وتحطُّ على شبابيك الشعراء فتحرك في ذواتهم الإلهام فيجودون بأرق الشعر وأعطره.

كثيراً ما نسمع من الناس قولَهم: كانت سهرةً مُمتعةً، ولكن ليس فيها روح.كان كلام الخطيب منمَّقاً ولكن ليس فيه روح. حقاً كان منزلاً رائعاً ولكن من غير روح. ياله من معلِّم متمكِّن ولكن ليس فيه روحانيَّة، ونسمَع من النساء قولهن: إن العروسَ حسناء ولكن جمالها باهِتٌ ليس فيه روح.....

فالروح التي يتحدَّث عنها الناس هي ما أعنيه هنا، وهي ما أؤكِّد عليه، لأنَّ وجودها كوجود الكهرباء في الأسلاك وجرَيان الماء في الأنابيب، وسُكنى القطر في الغمام، والأرج في الورد.

ما أروع هذه الروح، ما أنضَرها، ما أجودَها، وما أجودَ بارئها! وما أحسنَ حضورها في كل شيء!

ومن جانبٍ آخرَ فإنَّ البحارة يعتنونَ بالمراكب ليصطادوا على متنِها اللؤلؤ والمرجان، والنَّمَلات تبني قراها لتؤمن لنفسها الحماية في فصل الشتاء. فما أجدر الإنسان بالحفاظ على رضى مانحِ هذه الروح، فالق الحب والنوى، رب السماوات والأراضين. حريٌّ بنا أن نحافظَ على سموِّ هذه الروح ونقائِها التي ستعود يوماً ما إلى خالقها، حريٌّ بنا أن نلبي لها حاجاتها، وألا نقطعها عن محبة خالقها لكيلا تخدرَ، وتصاب بالجَلطة فتتحول من وردَة شذيَّة إلى حجرة صماء، ومن قصيدة شعرية إلى مصفوفَة من الأرقام الجامدة.

أودعَها الله سبحانه وتعالى فينا أمانة غالية، وزوَّدنا بالغذاء الذي يكفُل لها النَّقاءَ في العاجِلَة والارتقاء إلى النعيم في الآجلة.

وإنَّ أنفعَ غذاءٍ للروحِ هو المحبَّة؛ محبَّة الخالق والتواصل معه، ومناجاته في الأسحار.

فالبطن يجوع وغذاؤه الطعام، والروح تجوع وغذاؤها العبادة.

الخاتمة

الحمد لله على نعمه التي لا تعدُّ ولا تُحصى.

كان هذا الكتاب مجرد خواطر وأشجان شخصية، وعبارات متناثرة أبوح بها هنا وهناك، فتارة تجدها على سطور الأوراق الخرساء، وتارة أخرى تجدها على أحد أغلفة كتبي الجامعية، وتارة أخرى تجدها مدونة على هوامش دفاتري، ومنها ما كان مدوَّناً على دفاتري عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية.

ومع مرور الوقت وجدت أن أدراجي باتت تضيق ذرعاً بقصاصات الورق الصغيرة، فعلى بعضها كُتبت أبيات شعرية، وعلى بعضها الآخر دوِّنت بعض العبارات البلاغية الآسرة، وأحياناً تجد كلمات معبرة وأقوالاً مؤثرة لمشاهير الرجال.

جمعت بعض هذه العبارات المتناثرة، وألفت بين كلماتها، ومشطت ضفائرها، ثمَّ عطَّرتها بمسك الحنين، وعرضتُها على أحد الأدباء فشجَّعني، وأثنى على أسلوبي، ففرحت بكلامه فرح الطفل بالهدية، وعكفت على تلك الأوراق فجمعتها كلها، وزدتُ عليها، وها هي ذي كما ترون كتاباً أحسب أنه نافع ومفيد لكل قارئ.

أريد أن أقول للأخوة القراء: إن الأشياء الصغيرة، والأفكار البسيطة كالغراس الصغيرة التي إذا ما تعهدناها بالرعاية والسقاية نمت وترعرعت، وآتت أكلاً طيبة بإذن الله.

سأكون سعيداً عندما تتحول المعاني التي أودعتها في ثنايا سطور هذا الكتاب إلى واقعٍ معيش، عندما تُصبح المذاهب والتيارات والمدارس الفكرية التي تُنادي بالقيم قادرةً على تجميع

الأمم والشعوب بدلاً من تفريقها، عندما ننجح في تطوير القيم الأخلاقية في جميع معاملاتنا مع الناس على اختلاف أعراقهم وألوانهم وألسنتهم ومذاهبهم.

أحمد الله سبحانه وتعالى الذي هدى قلبي لمحبَّته ومحبَّة رسوله وصحابته، ومحبَّة الصالحين والمخلصين والمبدعين وجميع الناس قاطبة، كما أحمده سبحانه لأنه حبَّب إليَّ القراءة التي جعلتني أكتشف روائع الرجال الثقات، وأفيد من أفكار العلماء والأدباء وتجاربهم الثرية. كما أعتزُّ بتوفيق الله الذي يسَّر لي الصحبة مع اليراعة، لأعبِّر من خلالها عما يجول في خلجات نفسي، وأقدمه للقراء بأسلوب بذلت قصارى جهدي ليكون مقبولاً عندهم أملاً في نقل أفكار الخير وروائع القيم لهم.

فمن وجد نقصاً في هذا الكتاب، أو خللاً في اللغة أو الأسلوب، أوتناولاً غير موفَّق لبعض الأفكار فمردُّ ذلك إليَّ، ومن وجد فكرة أصيلة، أو صورة فنية وبيانية جميلة فمردُّ ذلك إلى الله المنان ذي الفضل العظيم.

كل ما أتمناه أن يحمل هذا الكتاب القراء الفضلاء على التغيير نحو الأفضل.

بقلم:

بدر الحسين

الرياض 2011م/1432هـ

badrhussain@hotmail.com

المراجع والمصادر

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الحديث، مصر، القاهرة، **1425**هـ.
- أدب الكاتب، ابن قتيبة، ط**2**، مؤسسة الرسالة،، لبنان، بيروت، **1420**هـ.
- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، ط**31**، دار السلام للطباعة والنشر، جدة، **1997**م.
- جواهر الأدب، ط**1**، المكتبة العصرية، القاهرة، **1426**هـ.
- حتى تكون أسعد الناس، د. عائض القرني، ط**1**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، **1421**هـ.
- الحيوان، الجاحظ، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، **1424**هـ.
- ديوان الإمام الشافعي، جمع عبد الرحمن المصطاوي، ط**2**، دار المعرفة، لبنان، بيروت، **2004**م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، بيروت،**1427**هـ.
- صحيح جامع بيان العلم وفضله، الحافظ ابن عبد البر، ط**1**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،**1416**هـ.
- صحيح مسلم، مكتبة التراث الإسلامي، ط**1**، مصر، القاهرة، **1425**هـ.

- صحيح سنن أبي داوود، الألباني، ط**1**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، **1409**هـ.

- صحيح البخاري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، **1426**هـ.

- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، دار المعارف، مصر، **1421**هـ.

- صحيح الجامع الصغير، الألباني، ط**3**، المكتب الإسلامي، لبنان، بيروت، **1408**هـ.

- صناعة الكراهية بين الثقافات، وأثر الاستشراق في افتعالها، علي النملة، ط**1**، دار الفكر، دمشق، **1429**

هـ.

- طرائف الخلفاء والملوك، عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، **1990**م.

- طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، ط**1**، دار المعرفة، بيروت،**1423**هـ.

- هكذا علمتني الحياة، مصطفى السباعي، ط**2**، دار الوراق، الرياض، **1427**هـ.

- هي هكذا، د. عبد الكريم بكار، ط**4**، ج**1**، دار وجوه، الرياض، **1432**هـ.

- لا تحزَن، د. عائض القرني، ط**4**، مكتبة العبيكان، الرياض، **1424**هـ.

- لسان العرب، ابن منظور، ط**3**، دار صادر، لبنان، بيروت، القاهرة، **1425**هـ.

- نثر الدر، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، دار الكتب العلمية، ط**1**، ج**4**، بيروت، **1424** هـ، **2004**

م، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ.

- مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، **1425**هـ.

- مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، **1425**هـ

- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ط**1**، مكتبة الوراق، الرياض، **1420**هـ

- موسوعة روائع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، حسين علي الطويل، ط**2**، عمَّان، **2004**م.

- موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، د. روحي البعلبكي، دار العلم للملايين، ط11، لبنان،

بيروت،**2007**م.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ط**1**، دار الكتب العلمية،

بيروت، **1424** هـ /**2004** م، تحقيق: مفيد قميحة وجماعة.

- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، **2003**م.

- الأخلاق النظرية، عبد الرحمن بدوي، ط**2**، وكالة المطبوعات، الكويت، 1976م.

- الأعمال الكاملة، مصطفى لطفي المنفلوطي، ط**1**، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، **2005**م.

- البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، **2003**م، تحقيق عبد السلام هارون.

- الجامع الصغير، السيوطي، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت.

- السلسلة الصحيحة للألباني، دار المعارف، مصر، القاهرة.

- الشِّعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، تحقيق أحمد شاكر، **1423**هـ.

- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، المكتبة العصرية، لبنان، بيروت، صيدا، **1425**هـ.

- الفوائد، ابن قيم الجوزية، ط**1**، دار ابن حزم، لبنان، بيروت، **1423**هـ.

- المعجم الوسيط، ط**4**، مكتبة الشروق، القاهرة، **1425**هـ.

- المكنز الكبير، أحمد مختار عمر، ط**1**، شركة سطور، الرياض، **2000**م.

مستخلص

يقدم هذا الكتاب وصفة تجلب السعادة؛ التي تتجلى في طمأنينة النفس، واتزان التفكير، والرضا بواقع الحال، ومدِّ جسور المحبة مع الآخرين، وممارسة ثقافة العطاء والبذل. سعادة روحانية حقيقية، ليست قشوراً وبهارج أو زخارف مصطنعة.

هو وصفةٌ تعيدُ لنفس القارئ الكريم الصفاء المحبب والسَّكن الجميل، ولقلبه نبضات الفرح، وهمسات الحنان، وتحمله على التوقف لبعض الوقت ليتأمل روعة القيم، وجمال الفضائل، وسحر البيان، وروعة القراءة، ودور المعاني الخيرة في نيل السعادة الحقيقية في وقت انصرف فيه جلُّ الناس إلى الانشغال بالعوالم الماديَّة، والمظاهر الخادعة، والصور المزيفة، واتباع السبل التي تحقق المنافع والمكاسب الشخصية التي سرعان ما تتلاشى حلاوتها، ويخبو بريقها.

هذا الكتاب رسالة إلى كل قارئ؛ ليعيد النظر في أسلوب حياته، وطريقة تفكيره، وحدود أحلامه الوردية، لعله يصحو، ويشرع في ترتيب أولوياته من جديد عندما يتفكر بنهاية هذه الحياة وقِصَر مدتها، وماهية الرسالة التي ينبغي أن يؤديها، ومن ثم يبدأ بالإعداد لحياة سعيدة وذات مغزى في الآجل والعاجل؛ حياة تقوم على المودة والمحبة والصفح والتسامح والإصلاح والتعاون وصلة الرحم، حياة تقوم على تقديم صورة مشرقة عن ذاته الإنسانية الحقيقية.

ولا يخفى على القارئ الكريم أن نفحة السعادة الصافية أينما وُجدت حلَّت اللمسة السَّاحرة والقيمة المأنوسة، تتسلَّل عبر الكلمات فتحولها إلى بيان يأخذ بالقلوب والألباب. تهامس القلب فينبض بالحب والصفاء. تسكن في العيون فتجلو بلَّور أحداقها لتشاهد المحاسن، وتغض الطرف عن المساوئ، وترى جميل صنع الخالق في كل شيء. ما أشبه حضور السعادة بسريان الكهرباء في الأسلاك وتدفق الماء في الصحاري، وسكنى القطر في الغمام، والأرج في الورد!

يدعو هذا الكتاب القارئ الكريم للاهتمام بالجانب الروحاني، وليغذِّيه بالعبادة، ويسقيه قَطر الخير، وينشطه بتطبيق القيم الفاضلة، وممارسة العادات الإيجابية.

نحسب أن هذا الكتاب يساعد القارئ الكريم على أن يجلوَ الغبار الذي غطى بلَّور النفس الشفيف، ويذيبَ الجليد من فوق المشاعر الدافئة والأحاسيس النبيلة، ويوقظ الفطرة الصافية في النفس، ويرأب الصدوع التي حلَّت في بنيان القلب المتماسك، ويحفزه إلى تلمُّس جمالِ الفضائل والقيم، والاستمتاع بروعة آثارها التي تجعل من نبضات القلب أجنحة بيضاء تطير فوق الخمائل الناضرة، والأزاهير الشذية العطرة.

كما يقدم الكتاب أطيافاً منوعة، وضروباً متعددة من ضروب الترويح عن النفس من خلال أقوال الحكماء المعبرة، ونفائس الشعراء الموحية، ولطائف اللغويين الممتعة، فضلاً عن مجموعة من القصص المؤثرة من الموروث الإسلامي، والعربي والعالمي.

Abstract

This book [The Seedlings of Happiness] is a recipe that brings happiness, which is demonstrated in tranquility, self-comfort, balanced thinking, satisfaction with what one has, building bridges of love with others, and practicing the culture of giving and benevolence. It is a true .spiritual happiness, and rather not a fake shell or artificial decorations

It is the recipe that brings back to the reader's soul a beloved serenity and peacefulness, and for his heart the pulse of joy, the whispers of affection, and offers him the ability to stop for some time to ponder on splendor values, the beauty of virtues, the magic of the rhetoric, the brilliance of reading, and the role of good values ??in gaining true happiness in a time where most people became preoccupied with materialistic world, deceptive appearances, fake realities, and the following of ways that achieve personal gains and benefits, which their sweetness .soon fade, and their glittering soon become dull

The book is a message to every reader; to reconsider his lifestyle, his way of thinking, and his rosy dreams, in order that he might wake up and rearrange the order of his priorities, as he ponders on the end of this life, its short duration, the message that he should represent, and then he begins to prepare for a happy and meaningful life, for now and for the

future, that is based on love, affection, tolerance, forgiveness, reform, cooperation and true kinship bond. It is a life where one presents a bright .picture of human image

It is well known to our dear reader that wherever a whiff of pure happiness exists, a magic touch would be revealed, a beautiful value would also co-exist, it sneaks through the words transferring them to rhetoric that .capture the hearts and minds

They would whisper to the heart so it would palpate with love and serenity. They would dwell in the eyes and grant them clarity of vision that enables the eyes to see the mere beauty of things and enable them to ignore the evils of things. It would further enable the eyes to visualize the .beauty of the Creator's creation

The presence of happiness is much like the passage of electricity in the wires, the flow of water in the deserts, the presence of water drops of !rain in the clouds, and the scent of fragrance in the roses

The book invites our dear reader to care more for the spiritual side, to enrich it, and nourish it by worship, to water it with the drippings of goodness, and to activate it by the application of moral values?? and the .exercise of positive habits

I believe that this book helps our dear reader to remove the dust that covers the delicate crystal of his soul, to melt the ice layer of the warm and noble feelings, to awaken the pure innate of the soul, to batch up the cracks that affect the strong-hold heart urging it to seek the beauty of the virtues and values, and to enjoy the splendor effects that make the heart beats like white wings that help fly over the fresh green meadows and .lovely aromatic flowers

The book also offers a diverse spectrum and multiple forms of recreation through expressive words of the wise, valuable poets' poems, entertaining linguists' amusements, besides a collection of touching stories from the Islamic, Arab world and international traditions

Notes

[1←]

الجامع الصغير، السيوطي، الحديث رقم 1483، وهو حديث حسن .

[2←]

حتى تكون أسعد الناس، د. عائض القرني، ص: 26 .

[3←]

لا تحزَن، د. عائض القرني، ص: 171 .

[4←]

موسوعة روائع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، حسين علي الطويل، ص: 227–229 .

[5←]

موسوعة روائع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، حسين علي الطويل، ص: 227–229 .

[6←]

موسوعة روائع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، حسين علي الطويل، ص: 227–229 .

[7←]

موسوعة روائع الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، حسين علي الطويل، ص: 227–229 .

[8←]

موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، د. روحي البعلبكي، ص: 339 .

[9←]

نثر الدر، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424 هـ، 4/43 .

[10←]

الأعمال الكاملة، مصطفى لطفي المنفلوطي، 1/36 .

[11←]

مقدمة ابن خلدون، ص: 476 .

[12←]
هكذا علمتني الحياة، مصطفى السباعي، ص: 286 .

[13←]
هي هكذا، د. عبد الكريم بكار، 1/72 .

[14←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 2588 .

[15←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 2078 .

[16←]
موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، د. روحي البعلبكي، ص: 437 .

[17←]
سبق تخريج الحديث .

[18←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 2568 .

[19←]
السلسلة الصحيحة للألباني، الحديث رقم 1876 .

[20←]
العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، 2/ 183 .

[21←]
رواه مسلم، الحديث رقم 2586 .

[22←]
الحيوان، الجاحظ، ص:6-7 .

[23←]
موسوعة روائع الحكمة، د. روحي البعلبكي، ص: 156 .

[24←]
موسوعة روائع الحكمة، د. روحي البعلبكي، ص: 156 .

[25←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 6094، وهو متفق عليه .

[26←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 1909 .

[27←]
موسوعة روائع الحكمة، روحي البعلبكي، ص: 389 .

[28←]
المصدر السابق، ص: 389 .

[29←]
المصدر السابق، ص: 389 .

[30←]
كتاب تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله علوان، ص: 135 .

[31←]
المصدر السابق، ص: 135-136 .

[32←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 2605 .

[33←]
صناعة الكراهية بين الثقافات، وأثر الاستشراق في افتعالها، علي النملة، ص:153 .

[34←]
المكنز الكبير، الدكتور أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى 2000م .

[35←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 7497 .

[36←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 6696 .

[37←]
موسوعة روائع الحكم والأمثال العالمية، د. روحي البعلبكي، ص: 381 .

[38←]
كتاب الشّعر والشعراء، ابن قتيبة، ص: 867 .

[39←]
صحيح البخاري، حديث رقم (5971).

[40←]
السلسلة الصحيحة للألباني: 925 .

[41←]
وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، 1/36 .

[42←]
روائع الحكم والأمثال والأقوال، حسين علي الطويل، ص: 124 .

[43←]
المصدر السابق.

[44←]
موسوعة روائع الحكمة، د. روحي البعلبكي، ص: 557 .

[45←]
المرجع السابق .

[46←]
المعجم الوسيط، ص: 151 .

[47←]
روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيّة، ص:20 .

[48←]
طوق الحمامة في الإلفة والألاف، ابن حزم الأندلسي، ص: 34 .

[49←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 54 .

[50←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 3383 .

[51←]
ديوان الإمام الشافعي، ص: 71 .

[52←]
الأدب المفرد، باب التؤدة في الأمور، الحديث رقم 583 .

[53←]
جواهر الأدب، ط1، ص: 380-381 .

[54←]
البخاري، الحديث رقم 6128 .

[55←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 2593 .

[56←]
صحيح البخاري، كتاب العلم، الحديث رقم 99 .

[57←]
الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 2 /549 .

[58←]
موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، د. روحي البعلبكي، ص:211 .

[59←]
موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، د. روحي البعلبكي، ص:211 .

[60←]
الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص: 73 .

[61←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 2442 .

[62←]
رواه البخاري، الحديث رقم 2442 .

[63←]
رواه البخاري، الحديث رقم 2446 .

[64←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 1936 .

[65←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 6203 .

[66←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 5997 .

[67←]
صحيح البخاري، الحديث رقم516 .

[68←]
صحيح الجامع، الألباني، 4765 .

[69←]
عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب)، محمد فهمي عبد الوهاب، ص:34، من كتاب محمد حسام الخطيب، هل كان محمد رحيماً، ص: 193 .

[70←]
المرجع السابق، ص: 33 .

[71←]
المرجع السابق، ص: 38 .

[72←]
كتاب الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 1/845 .

[73←]
جواهر الأدب، ص: 421 .

[74←]
كتاب الأخلاق النظريَّة، د. عبد الرحمن بدوي، ص: 221-222 .

[75←]
كتاب الأخلاق النظريَّة، د. عبد الرحمن بدوي، ص: 28 .

[76←]
صحيح مسلم، الحديث رقم: 2564 .

[77←]
إحياء علوم الدين للغزالي، باب النكاح، 2/ 76 .

[78←]
موسوعة روائع الحكم والأمثال، حسين الطويل، ص: 332 .

[79←]
البيان والتبيين، الجاحظ، 1/ 53-54 .

[80←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 13 .

[81←]
لا تحزن، عائض القرني، ط4، ص: 170 .

[82←]
صحيح مسلم، الحديث رقم 1054 .

[83←]
البخاري، الحديث رقم 9 .

[84←]
صحيح الجامع الصغير، الألباني، الحديث رقم 6297 .

[85←]
إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، المجلد الأول، ص: 18 .

[86←]
المرجع السابق، 1/17 .

[87←]
العقد الفريد، ابن عبد ربه، 1/74 .

[88←]
المرجع السابق، 1/76 .

[89←]
مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، ص: 167 .

[90←]
صحيح جامع بيان العلم وفضله، الحافظ ابن عبد البر، ص: 51 .

[91←]
من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص: 266-267 .

[92←]
صحيح الجامع، الحديث رقم 5594، حسنه الألباني .

[93←]
سبق تخريج الحديث .

[94←]
موسوعة روائع الحكمة، روحي البعلبكي، ص: 387 .

[95←]
موسوعة روائع الحكمة، البعلبكي، ص: 633 .

[96←]
موسوعة روائع الحكمة، البعلبكي، ص: 633 .

[97←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 5970 .

[98←]
طرائف الخلفاء والملوك، ص: 299 .

[99←]
موسوعة روائع الحكمة والأمثال، د. روحي البعلبكي، ص:107

[100←]
المصدر السابق، ص: 107 .

[101←]
المصدر السابق، ص: 107 .

[102←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 30 .

[103←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 3472 .

[104←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 13 .

[105←]
صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، الحديث رقم2661، حسنه الألباني .

[106←]
سبق تخريج الحديث .

[107←]
أدب الكاتب، ابن قتيبة، ط2، ص: 14-15.

[108←]
صحيح البخاري، الحديث رقم5970 .

[109←]
صحيح البخاري، الحديث رقم 5985 .

[110←]
صحيح سنن أبي داوود، الألباني، الحديث رقم 4779 .

[111←]
موسوعة روائع الحكمة، روحي البعلبكي، ص: 370 .

[112←]
موسوعة روائع الحكمة، روحي البعلبكي، ص: 370 .

[113←]
موسوعة روائع الحكمة، روحي البعلبكي، ص: 370 .